رسالة الضب

تأليف العلامة

محمد البشير الإبراهيمي الجزائري

المتوفى سنة ١٣٨٥/١٩٦٥

قرأها وقدم لها

سامي غرمول

دار المعارف الجزائرية
للنشر والتوزيع

رسالة الضب

تأليف العلّامة

محمّد البشير الإبراهيمي الجزائري

المتوفى سنة ١٣٨٥/١٩٦٥

قرأها وقدّم لها

سامي غرمول

«إنّ الإبراهيميّ فلتة من فلتَات الزّمان،
وإنّ العظمة أصل في طبعه»
العلّامة العربي التبسي

دار المعارف الجزائرية
للنّشر والتّوزيع

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م

رقم الإيداع القانوني: 2012-82

ردمك: 978-9931-9067-0-4

دار المعارف الجزائرية للنشر والتوزيع

264 شارع أول نوفمبر العلمة سطيف

هاتف و فاكس: 37 62 65 036

البريد الإلكتروني: d.almaarif@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتدي ومن يُضلِل فلن تجد له وليّا مرشدا.

أمَّا بَعْدُ:

فتُعَدّ رسالة الضّبّ للإمام الإبراهيميّ أثراً ذا قيمة علميّة كبيرة، كَيْفَ لا وقد أملاها الشّيخ مِن حفظه يومَ كان مسجوناً بمدينة آفْلو مِن الصّحراء الوَهْرانيّة وضَمَّنَها مِن الفوائد والأشعار والمسائل اللّغويّة واللّطائف قدراً لا يُستهان به، فهي تُعدّ مِن كتب الأَمَالي، وكتبُ الأَمَالي - واللّغويّةُ منها خاصّةً - انقطع التّصنيفُ فيها منذ أَمَدٍ بعيدٍ كما ذكر السُّيوطيّ وغيرُه.

وأوّل مَن أملى مجالسَ في اللّغة هو أبو العبّاس ثَعْلَبُ المتوفّى سنة ٢٩١، وقد نُشرت أَماليه باسم «مجالس ثَعْلَب» بتحقيق العلّامة عبد السّلام هارون، ثمّ أمالي اليَزيديّ المتوفّى سنة ٣١٠، ونُشرت في حَيْدَر آباد بالهند، وبعدهما أمالي

الزّجّاجيّ المتوفّى سنة ٣٣٧ وقد حقّقها عبد السّلام هارون، وأمالي القالي أبي عليّ المتوفّى سنة ٣٥٦ وهي مطبوعةٌ منذ أمَد، وأمالي ابن الشَّجَريّ المتوفّى سنة ٥٤٢ وهي مِن أَجْوَد كتب الأمالي حقّقها الدّكتور محمود الطّناحي، وأمالي ابن الحاجِب المتوفّى سنة ٦٤٦ وهي مطبوعةٌ أيضا.

فالرّسالة إذن إحياءٌ لهذا النّوع من التّصنيف الذي يحتاج إلى اطّلاع واسع وحافظةٍ واعيةٍ مع كثرة محفوظٍ، وقد كان للمتقدّمين الحظُّ الأوفر والنّصيب الأكملُ مِن هذه الشّروط، ولهذا كثُر هذا النّوع مِن التّصنيف عندهم، قال السُّيوطيّ رحمه الله: «وقد كان في الصّدر الأوّل فاشِياً كثيراً، ثمّ مات الحفّاظ وانقطع إملاء اللّغة مِن دهرٍ مديدٍ» المُزهِر (٢/٢٦٩).

وهذا ما توفّر في الشّيخ رحمه الله تعالى، فهو يُعدّ في المتأخّرين نادرةً، بل أسلوبه يضاهي الكثير مِن أساليب المتقدّمين، وإن كنتَ في شكٍّ مِن هذا فقَلِّبِ النَّظَرَ في آثاره، ترى مِن جودة الأسلوب وقوّة الحجّة واستِرسال الفكرة وطَلاقة القلم ونَصَاعة العبارة ما تقف أمامَه مبهوراً، وهذا الجانب هو الذي أخذ به معاصريه مِمَّن سمعه أو جلس إليه.

وبعد كلّ هذا فالرّسالة ذاتُ قيمةٍ أدبيّةٍ مِن جهة أخرى، وهي أنّها صُنِّفت على هذا النَّمَط المعروف عند أصحاب المعاجم بـ «كتب الحيوان» ، وكتبُ الحيوان هي كتب لغويّة مفردةٌ لِنوع من أنواع الحيوان ككُتب الخيل والشّاء

والإبل والحشرات وغير ذلك، وقد كان هذا النّوع مِن التّصنيف شائعا في العصور الأولى من التّدوين وصُنِّفت فيه الكثيرُ مِن الكتب وقد طُبع شيءٌ منها.

وهذه الرّسالة تُعَدُّ مِن كتب (الحشرات)، وحَرِيٌّ بالتّنبيه أنّ لفظ (الحَشَرَة) في اللّغة لا يُطلق على ما جرى عليه الاصطلاحُ والشّهرة اليوم، وإنّما الحشرة عند المتقدّمين تشمَل كلَّ ما كان صغيراً مِن دَوابِّ الأرض مثلَ: اليَرْبوع والأرنب والقُنفُذ والجُعْل والخُنْفُساء وغير ذلك، قال الخليل بن أحمد رحمه الله: «الحشرة ما كان مِن صغار دوابِّ الأرض مثلُ اليرابيع والقنافذ والضِّباب ونحوها» العين (٢٦٩/١)، وقال ابن قتيبة رحمه الله: «والحشرة ما كان من الهَوَامِّ وصغار دوابِّ الأرض، مثلُ الحناظب والجُعْلان والنّمل والحيّات والأساريع واليرابيع وهو اسمٌ جامعٌ لذلك كلّه» الجراثيم (ص١٣٥).

ومِمَّن كتب عن الضَّبّ الجاحظ في كتابه الحيوان (٣٨/٦ـ١٤٧)، وأبو العلاء المعرّيّ في رسالة الصّاهل والشّاحج (١٤٧وما بعدها)، وابن قتيبة في المعاني الكبير (٦٤٢/٢)، والجراثيم (٢٣٨/٢)، والدُّمَيْري في حياة الحيوان الكبرى (٩٨/٣ـ١٠٢)، وابن سِيدَة في المُخَصَّص (٨/٢ وما بعدها)، ومِن المعاصرين الأستاذ شاكر هادي شكر في الحيوان في الأدب العربيّ (٢٢٩/٢وما بعدها)، والأستاذ أحمد الشّرقاويّ إقبال فقد كتب في ذلك رسالةً جامعةً وهي مطبوعةٌ بعنوان: «ما جاء عن العرب في الضَّبّ».

والشّيخ رحمه الله أملى هذه الرّسالة بعد أن رأى الضَّبّ الذي أهداه الأستاذ أحمد بن أبي زيد قصيبة لولد الشّيخ الأستاذ أحمد طالب الإبراهيميّ، وذلك بتاريخ: ١١ شوّال ١٣٥٩هـ (نوفمبر ١٩٤٠).

وقد قسّمها إلى فصول، ولم يجعل لها عناوين أو تراجِم، وقد أبقينا على ذلك، وجعلنا العناوين في الفِهْرِس، و شرحنا ما ورد فيها مِن لفظٍ غريبٍ، وخرَّجنا أشعارها وأمثالها، وكتبنا هوامش لمن يريد الاستزادة والتوسُّع في الفكرة، بعد أن ضبطنا نصّها.

فعسى بهذا الجهد المتواضع أن تحتلّ هذه الرّسالة مكانتها بين كتب الأدب، بعد أن ظلَّت حبيسةَ دُفَّتي (الآثار) دهراً مِن الزّمن.

وفي الأخير إن كان أحد يستحقّ الشّكر بعد الله ذي النِّعم، فهم أولئك الشَّبَبَة المقبلون على تعلُّم القرآن في زمنٍ تَكالب النّاس فيه على حطام الدّنيا، فلهم منّي جزيل الشّكر والثناء.

ترجمة العلامة البشير الإبراهيمي *

هو الشّيخ الإمام العلّامة اللّغويّ الأديب السّلفيّ: محمّد البشير بن محمّد السّعدي الإبراهيميّ، نسبةً إلى قبيلةٍ عربيّةٍ ذاتِ أَفْخاذ وبُطون تُعرف بـ (أولاد ابْراهم).

وُلد عند طلوع الشّمس مِن يوم الخميس الرّابع عشر من شهر شوّال عام ١٣٠٦ الموافق لـ: الثّالث عشر جوان ١٨٨٩ ميلاديّة.

حفِظ القرآن حفظاً متقَناً على يد عمّه الأصغر الشّيخ محمّد المكّي قبل أن يُتمّ السّنة الثامنة، وحفظ عليه في تلك السنّ أَلْفيّةَ ابن مالكٍ وتلخيصَ المفتاح، وما بلغ العاشرةَ حتّى كان يحفظ عدّة مُتون علميّة مُطَوَّلة، ولم يبلغ الرّابعة عشرة حتّى كان يحفظ أَلْفِيَّتَيْ العِراقيّ في الأَثَر والسِّيَر، ونَظْمَ الدُّوَل لابن الخطيب ومعظمَ رسائله، ومعظمَ رسائل فُحول الأندلس، والكثيرَ مِن الشّعر العربيّ القديم، حتّى أنّه كان يحفظ عدّة دواوينَ كاملة.

---

* ترجم الكثير للشّيخ وكتبوا عنه، ومِن أجمع ما كُتب في ذلك ما كتبه هو عن نفسه جواباً لمجمع اللّغة العربيّة بمصر، انظر الآثار (٥/ ٢٧٢)، ولجريدة المُصَوِّر، انظر الآثار (٥/ ١٦٣).

توفّي عمّه رحمه الله وله من العمر أربعة عشر سنة، فخلَفه في تدريس العلوم للطلبة.

رحل إلى الحِجاز سنة ١٩١١ ملتحقاً بوالده الذي اتّخذ المدينة قَراراً له، ومَرّ في طريقه بالقاهرة وبقي بها ثلاثةَ أشهر مستفيداً مِن دروس الأزهر، وزار خلالها أحمد شوقي وحافظ إبراهيم ورشيد رضا، ثمّ استقرّ بالمدينة دارساً ومُدرّساً ومُطالعاً.

ثمّ لمّا قامت ثورة الشّريف حسين رُحِّل فيمن رُحِّل مِن سكّان المدينة إلى الشّام، فوصلها في النّصف الأخير مِن سنة ١٩١٦، واشتغل مُدرّساً بها مُدّةَ مقامه هناك، وتزوّج ورُزق ولداً لكنّه تُوفّي ودُفن هناك.

رجع إلى الجزائر في أوائل سنة ١٩٢٠ واشتغل بالتّدريس والوعظ والإفادة إلى سنة ١٩٣١ مُدّة عشر سنوات، وفي هذه السّنة أسّس هو وجماعةٌ مِن العلماء المصلحين «جمعيّةَ العلماء المسلمين الجزائريّين» وانتُخب نائباً لرئيسها الشّيخ العلّامة المصلح عبد الحميد بن باديس، وبقيَ في منصبه هذا إلى أن تُوفّي الشّيخُ ابن باديس في أوائل سنة ١٩٤٠ فانتُخب بالإجماع رئيساً للجمعيّة وهو بمنفاه بآفلو من صحراء وهران، ثمّ أُطلق سراحُه بعد أن قضى بالمنفى ثلاث سنوات، فشرع في العمل والجهاد مِن جديد، فأسّس في سنةٍ وبعض السّنة سبعين مدرسة عربيّة حرّة، وبقي مستمرّا في جهاده هذا مُدرِّسا وخطيبا، وكاتبا في جريدة

الجمعية ولسان حالها «البصائر»، ومُصلحا بين النّاس، ومُناهِضا للسّياسة الاستعماريّة الفرنسيّة، وقاسى رحمه الله في هذه المرحلة الأَمَرَّيْن مِن ظلم فرنسا وجبَروتها، فسُجن إثر إطلاق سراحه مِن منفاه بآفلو في أعقاب ما يعرف بـ (مجازر الثامن من ماي) مائة يومٍ بالعاصمة الجزائر، ثمّ نُقل بعدها بطائرةٍ إلى السّجن العسكريّ بقسنطينة، وكان إذا اشتدّ به المرضُ نقلوه إلى المستشفى العسكريّ، ولبِث في السّجن والمستشفى أحدَ عشر شهراً كاملةً، وبعدها أُطلق سراحُه باسم العفو العامّ.

رجع رحمه الله إلى عمله واشتغل بإعادة فتح المدارس التي أغلقتها فرنسا وتأسيس مدارسَ جديدة.

خرج رحمه الله يوم ٧ مارس سنة ١٩٥٢ في رحلة طويلة إلى المشرق العربيّ، فأقام في القاهرة أسبوعا، ثمّ انتقل إلى باكستان فأقام بها قريبا مِن ثلاثة أشهر، وألقى بها الكثيرَ من الدّروس والمحاضرات، ثمّ انتقل منها إلى العراق ودرّس بها وأفاد، وبقي بها نحو ثلاثة أشهر أيضا، ثمّ انتقل إلى الحِجاز في حجّ سنة ١٩٥٢ وألقى بها الكثيرَ من الدّروس والمحاضرات، ثمّ رجع إلى القاهرة وبقي يتردّد منها على العراق والحجاز وسوريا والأردنّ والقدس، وكان غرضُه مِن هذه الرّحلات أمران الأوّل: مشاركة إخوانه العلماء في الدّعوة والنّصح، والثّاني: التّعريف بالجزائر ودعوة الحكومات العربيّة والإسلاميّة إلى مساعدتها في مسيرتها.

وبقي رحمه الله بالمشرق إلى أن قامت الثّورة التّحريريّة المظفَّرة فكان مِن أوّل مَن ساندها بالبيانات والخُطب وبتقديم النُّصح والتّوجيه لقادتها، والاتّصال بزعماء الدّول العربيّة والإسلاميّة لطلب التّأييد السّياسيّ والماليّ لها، وفي إحدى زياراته إلى باكستان أصيب رحمه الله بكسر في ظهره، وبقي في المستشفى في باكستان عدّة أشهر إلى أن شُفي.

رجع إلى الجزائر بعد إعلان الاستقلال، وخطب أوّل خُطبة جمعة في جامع كتشاوة بوسطِ العاصمة الجزائر، الذي حوّلته فرنسا إلى كنيسة طيلة قرن وثلث القرن، وحضر هذه الخطبة الكثير من الزّعماء والسّياسيين وقادة الدّول.

اعتزل الحياة العامّة في آخر أيّامه بسبب المرض وكبر السنّ، ووُضع تحت الإقامة الجبريّة بسبب اختلافه مع قادة البلاد الجدد، وبقي مسجوناً في بيته إلى أن تُوفّي رحمه الله في: الثّامن عشر من المحرّم ١٣٨٥، الموافق لـ: التّاسع عشر من مايو ١٩٦٥ ميلاديّة، عن عمر قارب السّبعة والسّبعين عاماً، فرحمه الله رحمة واسعة، جزاء ما جاهد خدمةً للإسلام والعربيّة.

رسالة الضب

تأليف العلّامة

محمّد البشير الإبراهيمي الجزائري

المتوفى سنة ١٣٨٥/١٩٦٥

قرأها وقدّم لها

سامي غرمول

«إنّ الإبراهيمي فلتة من فلتات الزمان،
وإنّ العظمة أصل في طبعه»
العلّامة العربي التبسي

دار المعارف الجزائرية
للنشر والتوزيع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حَضْرَةَ الفيلسوفِ ولدَنا الأستاذَ أحمدَ بنَ أبي زيد قُصَيْبَة(١) – حفظه الله – وما زلت أَنْعَتُكم في رسائلي إليكم بالفيلسوف تَنَادُراً ومُباسَطةً وتَظَرُّفاً، وأنا لا أجهلُ أنَّكم تَنْطَوُون على شَمائلِ فيلسوفٍ أو تَحمِلون روحَه بالتَّعبير العصريِّ، حتّى جاءت هديَّتُكُم لأحمدَ(٢) على يَدِي وهي عبارةٌ عن ضَبٍّ

(١) الشّيخ أحمد بن أبي زيد قصيبة رحمه الله، وُلد سنة ١٩١٩ ميلاديّة بالأغواط، هاجر طالباً للعلم إلى الزّيتونة وعاد منها سنة ١٩٣٣، كانت له علاقة خاصّة مع الشّيخ الإبراهيميّ إذ كان يزوره في منفاه بآفلو، وابتداءً مِن سنة ١٩٤٣ أصبح كاتباً مركزيّاً لجمعيّة العلماء بالعاصمة، ومحرّراً بجريدتها البصائر، عاد إلى الأغواط سنة ١٩٥١ واشتغل بالتّدريس بجامعها العتيق إلى غاية اندلاع الثّورة حيث انخرط فيها، بعد الاستقلال أُسندت إليه وظيفة التّفتيش الجهويّ بوزارة الأوقاف، أسّس المعهد الإسلاميّ بالأغواط سنة ١٩٦٤ وصار مديراً له، كما شغل عضويّة المجلس الإسلاميّ الأعلى عند تأسيسه سنة ١٩٦٦، رغم تقاعده ظلّ يراسل الصّحف ويُحاضر ويُدرِّس إلى أن توفّي رحمه الله يوم الاثنين ٢٤ محرّم ١٤١٥ هـ الموافق لـ ٤ جويلية ١٩٩٤ م.

(٢) هو أحمدُ طالب الإبراهيميّ ابن الشّيخ العلاّمة البشير الإبراهيميّ، وُلد سنة ١٩٣٢ بمدينة سطيف، حاصل على شهادة جامعيّة في الطّب، ناضل في صفوف جبهة التّحرير الوطنيّ في مواقع =

وَوَرَلٍ[١] مُحَنَّطِيْن[٢] بالنُّخَالة[٣] لا بالمُومْيَا[٤]، فعاتَبتُكم - فيما أذكر - عِتابَ مُغَفَّلٍ بما معناه: أنِّي شَبَبْتُ عن طَوْقِ هذه الأَحْناشِ[٥].

وما كان ذلك العتابُ إلا عنواناً على غفلتي في ذلك الوقتِ - على الأقلِّ - ثمَّ فَاءَ عَلَيَّ عازِبُ عقلي[٦] وضائعُ فِكْري، ووضعتُ الضَّبَّ أمامِي وتأمَّلتُ خِلْقَته مرّاتٍ في أيّامٍ، فوالذي خَلَقَ الضَّبَّ والدُّبَّ، وأنبتَ النَّجْمَ[٧] والأَبَّ[٨]، فخَلقَ

متعدّدة، ودخل السّجن الاستعماريّ، بعد الاستقلال تقلّد عدّة مناصبَ وزاريّةٍ منها: الإعلام والخارجيّة إلى غاية سنة ١٩٨٨، مِن مؤلّفاته: رسائل مِن السّجن، أحلام ومِحَن ...

(١) الوَرَل، بفتحتين: دابّةٌ تُشبِه الضَّبَّ.

(٢) التَّحْنيطُ عند قدماء المصريّين حفظُ هيكل جسمِ الميّتِ بتخليصِه من الموادّ الرّخوة من جلْدٍ وغِشاءٍ، وتطهيرِ جَوْفه بموادَّ خاصّةٍ.

(٣) بضمِّ النُّون: ما نُخِل من الدّقيق، ونَخْلُ الدّقيق تصفيتُه.

(٤) لفظٌ غير عربيّ والمراد به الجثّة المحنّطة في قبور المصريّين القدماء.

(٥) هي حشراتُ الأرض، أو ما يُشبهُ الحيّاتِ منها، وقيل كلّ ما يُصاد مِن طائر أو هامّة فهو حَنَشٌ.

(٦) أي بعيدُه، عزُب بمعنى بَعُد، وهو مجازٌ ومنه قول النّابِغة:

وَصَـدْرٍ أَرَاحَ اللَّيْـلُ عَـازِبَ هَمِّـهِ   تَضَاعَفَ فِيهِ الحُزْنُ مِنْ كلّ جَانِـبِ

الدّيوان(٢٩- تحقيق: عبد الستار).

(٧) هو ما لا ساق له من النّبات.

(٨) هو الكَلأُ أو المَرْعى، أو هو كلّ ما أنبتتِ الأرض.

النَّوَى والحَبَّ، لقد أَذْكَرَني ضَبُّكُم بما كنتُ أَحْفَظُه عمَّا قِيل في الضَّبّ وعلى لِسانه، وما ضُرِب من الأمثال المتعلّقة به، ما لو خَلَعْتُ عليه أيَّامَ الصِّبَا جُدُداً[١]، ونَفَضْتُ عليه ماءَ الشَّبابِ مِداداً ومَدَداً، لم أَكُنْ لِأَذْكُرَهُ.

فقد كان هذا الحيوانُ محظوظاً عندَ العربِ دونَ كثيرٍ من الحيوانات الجَزَرِيَّةِ[٢]، فدرسوا ظاهِرَه وباطنَه، وعرفوا طِباعَهُ فأَكْثَرُوا فيه القولَ حتّى بلَغ هُيامُهُم به وتَمَنْطُقُهم بذِكره أَنْ نَحَلُوه[٣] بعضَ الخصائصِ الإنسانيَّة، وزادوا فنَحَلُوه فضيلةً لا تُوجَد في الإنسان ولا في غيره من الحيوان كما ستسمع.

والحقُّ أنّ الضَّبَّ حيوانٌ عربيٌّ جَزَرِيٌّ، ولا تَقُلْ إنّه صحراويٌّ وأنَّ الصَّحراءَ ليست خاصّةً بالعرب، فإنّ هذه الصحراءَ التي هي آيةٌ من آيات الله في أرضه، أو هي بابُ الفلسفةِ مِن هذا الكتاب الأرْضيّ لم يَعْمُرْها اللهُ بأُمَّةٍ تَشَرَّبَتْ معانِيَها[٤] وتَغَلْغَلَتْ في دقائقِها، ولاءَمَتْ روحُها روحَها مِثْلِ الأُمَّةِ العربيّة، وسَلِ التَّاريخَ يُنْبِئْكَ، فهو لم يعرفْ أُمَّةً خَلَعَتْ عليها الصَّحراءُ فِطْرَتَها وأُفْرِغَتْ عليها

---

(١) بضمّتين: جمعُ جديد.

(٢) نسبةً إلى جزيرة العرب، وجزيرةُ العرب هي البلاد الممتدَّة من أطراف الشّام شمالا، إلى عَدَنٍ من بلاد اليمن جنوبا، ومن جُدَّةَ شرقا إلى أطرافِ ريفِ العراق غربا.

(٣) أي أعطَوه.

(٤) أي خالطت معانيها نفوسَهم.

إِفْراغاً سَابِغاً غيرَ الأمَّةِ العربيّة.

ومِن هـٰهنا جاشَتْ[١] نفوسُ العرب وتَفَتَّقَتْ قَرائِحُهُم عن روائعِ الفلسفةِ الوصفيّة للصّحراءِ وأرضِها وسمائِها وليلِها ونهارِها وأَغْوارِها[٢] وأَنْجادِها[٣] وبَرارِيها القاحلةِ وشَجَراتِها ومَعايِشِها وقَيْظِها[٤] وصَرِّها[٥] وحيوانِها ونباتِها، وليس لأمّة من الأُمَم ما لِلعرب في وصف النُّجوم حتّى قَرَّبَتْها تشبيهاتُهم إلى الإدراك البَشريِّ[٦]، واعْتَبِر ما قالوه في سُهَيْلٍ والجَوْزَاءِ والسِّماكَيْنِ الأَعْزَلِ والرَّامِحِ والثُّرَيَّا والخَضِيبِ والدَّبَرَانِ والنَّسْرَيْنِ الوَاقِعِ والطَّائِرِ، على كثْرةِ النُّجوم وكثْرة ما قالوه فيها، وإذا كانت النُّجومُ لا تُحْصَى عدّاً، فقُلْ ذلك فيما قالتْهُ العربُ

---

(١) أي فاضت.

(٢) جمع غَوْر، وهو القَعْرُ مِن كلّ شيء.

(٣) جمع نَجْدٍ، وهو ما أَشْرَف من الأرض وارتفع.

(٤) القَيْظ شدَّةُ الحرّ.

(٥) الصَّرُّ شدَّةُ البرد.

(٦) انظر شيئًا من كلام العرب في وصف النّجوم في ديوان المعاني لأبي هلال العسكري (١/ ٣٢٠ وما بعدها)، وكتاب غرائب التّنبيهات على عجائب التّشبيهات لعليّ بن ظافر الأزديّ (ص١١ــ٤٦).

فيها[١].

---

(١) اعتنى العرب بالنّجوم عناية كبيرة منذ القِدم، حتّى كَثُر ما قالوه فيها من أشعار وأسجاع، وذلك لحاجتهم إليها في الاهتداء برّاً وبحراً، وفي الانتقال عن محَاضِرِهِم إلى مواطن المياه، وفي معرفة وقت النِّتاج ووقت الفِصال وغير ذلك، ثمّ لـمّا ابتدأ عصرُ التَّدوين أُلّفت كتبٌ في هذا الموضوع خاصَّة، والرّاجح أنّ أوّل مَن اعتنى بجمع المعلومات عن الأنوَاء هم اللّغويون والأدباء، ثمّ استفاد منهم الآخرون.

وأوّل مَن تَذْكُره المصادرُ صَنَّفَ في هذا الفنّ هو أبو فَيْد مُؤَرِّج بن عمرو السَّدُوسِيّ المتوفّى سنة ١٩٥، وأبو الحسن النَّضْرُ بن شُمَيْل المتوفّى سنة ٢٠٤، ثمّ تَوَالَت المصنَّفاتُ بعد ذلك، ولكن للأسف لم يصلْنا منها إلاّ كتابان أو ثلاثةٌ وفُقِدَت البقيَّةُ كلُّها.

واعلم – رحمني الله وإيّاك – أنّ العربَ لـمّا أرادوا تمييزَ الكواكب بعضِها مِن بعضٍ قَسَمُوا الفَلَكَ قسمين، وسَمَّوا أحدَهما جنوبيّا أو يمانيّا، وسَمَّوُا الآخرَ شماليّا أو شاميّا، وسَمَّوا كلَّ ما وقع في النّصف الجنوبيّ مِن الكواكب جنوبيّا أو يمانيّا، وكلَّ ما وقع في النّصف الشّمالي سَمَّوه شماليّا أو شاميّا، ثمّ بعد هذا سَمَّوُا النّجوم التي ينزل القمرُ كلَّ ليلةٍ عند واحدٍ منها (منازلَ)، ويُسَمُّونها أيضاً نجومَ الأخذ تفريقاً بينها وبين النّجوم التي تنزل عندها الشّمس والتي تُسمّى بروجاً.

ثمّ اعلم أنّهم اتّفقوا على أنّ منازلَ القمر ثمانيةٌ وعشرون منزلا لا خلافَ بينهم في ذلك، وهي التي ذكرها الله عزّ وجلّ في قوله: ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾، أربعةَ عشر منها شاميّةٌ وأربعةَ عشر منها يَمانيّةٌ، ينزل القمرُ كلَّ ليلةٍ بمنزل منها حتّى يَصِيرَ في آخر ليلة من الثّماني والعشرين كالعِذْقِ القَديم.

=

ومن بَدائع تشبيهاتِهم في النّجوم أَخَذَ المعَرّيّ تلكَ المَنازِعَ الغريبةَ وتلك النَّظَراتِ الفلسفيّةَ البعيدةَ الغَوْرِ المُنْبَثَّةَ في «لُزومِيَّاتِه»، وهي بابٌ على حِدَةٍ مِن فلسفته الكونيّة(١)، وما نَبَعَ ذلك الزُّلالُ(٢) ونَبَغَ ذلك السِّحْرُ الحلالُ إلّا ممّا تَرَكَهُ العربُ من تشبيهاتِهم لها وتَخَيُّلاتِهم فيها، وانْظُر أَوْصافَهُم البَدِيعةَ لظُلْمةِ اللّيل

والمنازل الشّاميّة هي: الشَّرَطَان، البُطَيْن، الثّريّا، الدَّبَران، الهقْعَة، الهنْعَة، الذّراع، النَّثْرَة، الطَّرَف، الجبْهَة، الزُّبْرة، الصَّرْفَة، العُوَّاء، السِّماك، والمنازل اليَمانيّة هي: الغَفْر، الزّباني، الإِكْليل، القَلْب، الشَّوْلَة، النَّعَائِم، البَلْدة، سَعْدُ الذّابح، سَعْدُ بُلَع، سَعْدُ السُّعُود، سَعْدُ الأَخبِيَة، والفَرغ الأوّل، والفَرغ الثاني، والحوت، والكلامُ عنها مبسوطٌ ومُوَضَّحٌ في كتب الفنّ وما تُسمِّيه العلماءُ بكتب الأنواء وأكثرُها مفقودٌ.

وقد كان لهذا الفنّ إلى وقتٍ قريبٍ وجودٌ، وكان يُدَرَّسُ في الزّوايا بقُطْرنا الجزائر، بل اختصّت زوايا بتدريسه واشتهرت به كزاوية الشّيخ المولود الحافظيّ الأزهريّ ببلاد القبائل الصّغرى، ومِن أشهر كتبه المعتمَدة عند المتأخرين شروح نَظْم أبي مُقْرِع، ولا تزال الكثيرُ من مخطوطاته موجودةً في المكتبات الخاصّة والعامّة، ولكنّ الأمرَ كما قال ابنُ قُتيبة المتوفَّى سنة ٢٧٦: «وقد كان هذا الشّأنُ عزيزا، والمعنيُّون به قليلا، والأدبُ غَضٌّ، والزّمانُ زمانٌ، فكيف به اليومَ مع دُثُور العلم وموت الخواطِر وإعراض النّاس» الأنواء (ص٨).

(١) انظر في ذلك بحث الدّكتور جاسم سليمان حمد الفهيد بعنوان: التّوظيف الفنّي للنّجوم والكواكب في شعر أبي العلاء. مجلّة حوليّات الآداب لجامعة الكويت، الحوليّة: ٢٥- الرسالة ٢٢٩.

(٢) هو الماء البارد العذب الصّافي.

وروعتِه وأثرِها في نفوسهم، وقَارِن ذلك بوصفهم للنّجوم يَنكشِفُ لكَ بعضُ السِّرِّ مِن تلك النّفوسِ وارتباطِها بكونِها وامْتِزاجِها به، ولا أَبْعُدُ إذا قلتُ إنّه ليس للأمم مجتمعةً ما لِلعرب في هذا الباب.

وليس لأمّة من الأُمَم ما لهم في وصف الحيوانات الضّارية، وإنّ أُمَمَ الحضارةِ على وَفْرَةِ أَدَواتِها لم تَدْرُسِ الضَّوَارِيَ[١] إلا بعد أن دَجَّنَتْها[٢]، وفاتَهُم أنَّ التّدْجينَ يَذهبُ بكثيرٍ من الخصائص الطّبيعيّة لها نيَفُوتُ بذلك على الدّارِس كثيرٌ من النّتائج، واعْتَبِرْ ذلك بتَدْجيننا – ونحن بشرٌ – كيف اغْتَال خصائصَنا ومُقَوّماتِنا، ومَسَخَ معنويَّاتِنا حتّى أصْبحنا أَحَطَّ مِن بعض أنواع الحيوان.

أمّا العربُ فخالطوا الضَّوارِيَ في أَغْيالِها[٣] واقْتَحموا مَآسِدَ[٤] خَفَّانَ[٥] والثُّرَيَّةِ[٦] وتَرْجٍ[٧] وغيرِها وذَلَّلَت أرضَها أقدامُهم، ومنهم من عايَشَ الضَّوارِيَ

---

(١) جمع ضَارٍ، وهو الحيوان المفترس.

(٢) التّدْجين جَعْلُ الحيوان أليفاً.

(٣) جمع غِيلٍ بالكسر، ويُفتح. وهو الشّجر الكثير الملتفّ.

(٤) جمع مَأْسَدَةٍ، وهي الأرض كثيرة الأُسود.

(٥) كعفَّانٍ، مَأْسَدَةٌ بين الثّني والعُذَيْبِ من أرض الكوفة.

(٦) قال صاحب اللّسان: ماءٌ معروف.

(٧) بفتح التّاء وسكون الرّاء، مَأْسَدَةٌ بناحية الغَوْرِ، والغَوْرُ منخفض بين القدس وحَوْرَان، وفي =

حتّى أَلِفَها وأَلِفَتْه وجمع بينهما عالَمٌ كعالَم المِثال عند الصُوفيّة، فلَطُفَتْ في السَّبُعِ سَوْرَةُ[1] السَّبُعِيّة وشِرَّتُها، وامتدّت في العربيّ الميزةُ الحيوانيّة، وتقاربت الغَرَائِزُ في الجوّ الحيوانيّ الوَسَطِ فصَدَقَ الوصفُ وحَقَّ التّصوير، ولو لم يكن العربيُّ أُمِّياً وكان ممّن يدرس الأشياءَ على المناهج العلميّة، لأتى العالَمَ بالمعجزات.

وليس لأمّة من الأمم ما للعرب في وصف الحشرات والزّواحف والإلمام بطبائعِها ووجوهِ تَصَرُّفاتِها وسَعْيِها في مَعَايِشِها وتَناسُلِها ودراسةِ ما بينها من امْتِزاجٍ وتنافرٍ، وصفٌ عن عِيَانٍ ودراسةٌ في الجوّ الطّبيعيّ، وليس لأحدٍ ما لهم في وصف النّبات والشّجر، وتحليلِ مَكاسِرِها[2] بالعَجْمِ[3] والغَمْزِ[4]، وتحقيقِ طُعومِها وخصائصها، وتقسيمِ أنواعِها وتسميةِ مُفْرَداتِها من شَثٍّ[5]

المَثَل: هُوَ أَجْرَأُ مِنَ السَّماشِي بِتَرَجٍ.

(١) السَّوْرَة هي السَّطْوة والاعتداء.

(٢) جمع مَكْسِر، وهو موضع الكسر.

(٣) عَجَمَ الشّيءَ: حزّه لأجل أن يختبره.

(٤) غَمَزَ الشيءَ، أي غَرَزَ فيه عوداً أو نحوَه.

(٥) هو ضَرْبٌ من الشّجر طيّبُ الرّيح مُرُّ الطَّعم يُدبَغ به.

رُطُبَّاقٍ(١) وآءٍ(٢) وتَنُّومٍ(٣) وثُمَامٍ(٤) وشِيحٍ(٥) وقَيْصُومٍ(٦) ثمّ غَرْبٍ(٧) وشويط(٨) ونَبْعٍ(٩)

---

(١) على وزن فُعَّال، هو شجرٌ نحوُ القامة ينبت متجاورا لا يكاد يُرىٰ منه واحدةٌ منفردةً. وله ورق دِقاقٌ طِوالٌ.

(٢) واحدُه آءَةٌ، اختلف فيه أهل اللّغة، قيل هو شجر الدِّفْلَى وقيل غيرُ ذلك.

(٣) واحِدُه تَنُّومةٌ، نوعٌ من نبات الأرض فيه سواد يأكله النَّعام والظِّباء.

(٤) بالتّخفيف، واحده ثُمامَة وثُمَّة، وهو نبت ضعيف قصير لا يطول.

(٥) نبتٌ سهليٌّ يُتَّخذ من بعضه المكانسُ، له رائحة طيّبة وطعم مرٌّ وهو مرعىً للخيل والنَّعَم.

(٦) نبتٌ زَهرُه مُرٌّ يُتَطَبَّب به.

(٧) بسكون الراء، هو شجر ضخم شائِك يكون بأرض الحِجاز.

(٨) الظّاهر أنه الشَّوْحَط – بالحاء – أمّا الشويط كما ورد في المطبوع فلم أجده في شيء من كتب اللّغة التي رجعتُ إليها، ولعلّه تصحيف. والشَّوْحَط هو شجر تُتَّخذ منه القِسِيّ أو هو ضرب من النَّبع، وهو من شجر الجبال، قال الرّاعي:

إِذَا لَمْ يَكُنْ رِسْلٌ يَعُودُ عَلَيْهِمُ مَرَيْنَا لَهُمْ بِالشَّوْحَطِ المُتَقَوِّبِ

الأنواء لابن قتيبة (ص٨)، وقال الشّاعر:

وَقَدْ جَعَلَ الوَسْمِيُّ يُنْبِتُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ بَنِي رُومَانَ نَبْعاً وشَوْحَطَا

المعاني الكبير لابن قتيبة (٢/ ٨٩٥)، والجراثيم له (٢/ ٥٠)، وانظر اللّسان والقاموس: مادة (شحط).

(٩) النَّبْعَة: شجر من أشجار الجبال تُتَّخذ منه القِسِيُّ.

وسَرَاءٍ[١] ومَرْخٍ[٢] وعَفَارٍ[٣]، إلى غير ذلك ممّا بلغوا في تصويره في أشعارهم درجةً تَقْرُبُ مِن تصويره بالألوان.

وقد اضطَرَّ رواةُ اللّغة ونَقَلَتُها في عهد التّدوين إلى إفرادِ هذا النّوعِ - وهو النّبات والشّجر - خاصّةً بالتّأليف، فلِأبي عُبَيْدةَ[٤] والأَصمَعيِّ[٥] ولأبي حاتِمٍ[٦] والنَّضْرِ بن شُمَيْلٍ[٧] ولِكُرَاعِ النَّمْلِ[٨] ولأبي زيد

---

(١) بالتّخفيف، واحِدُه سَرَاءة، ضَرْبٌ من شجر القِسِيِّ من كِبار الشّجر ينبت في الجبال.

(٢) شجر ليس له ورق ولا شَوْكٌ، ومنه يكون الزّناد الذي يُقتدح به.

(٣) بالتخفيف: شجر منه يُتّخذ الزّناد الذي يُقتدح به أيضا.

(٤) هو أبو عُبَيْدَةَ مَعْمَر بن المُثَنّى التَّيمِيُّ المتوفّى سنة ٢١٠، وعنوان كتابه «الزَّرع»، ولا نعلم عنه شيئاً.

(٥) هو أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيْبٍ الأصمعيّ المتوفّى سنة ٢١٦ وكتابه بعنوان: النّبات، أو النّبات والشّجر، نشره الدّكتور أوغست هفنز ضمن مجموعة «البُلْغة في شذور اللّغة»، وحقّقه من بعده الدّكتور عبد الله يوسف الغنيم، وطُبع تحقيقه بالقاهرة عام ١٩٧٢، انظر معجم المعاجم لإقبال (ص١١٥).

(٦) هو سهل بن محمّد بن عثمان الحبشاني السِّجِسْتانيّ المتوفّى سنة ٢٥٠، وكتابه هذا ذكره أصحاب التّراجم والفهارس ولا يُعلم عنه شيءٌ اليوم.

(٧) هو أبو الحسن النَّضْر بن شُمَيْلٍ بن خرشة التّميميّ المتوفّى سنة ٢٠٤، وكتابه مفقود أيضا.

(٨) هو أبو الحسن عليّ بن الحسن الهِنَائيّ الأزدي الملقّب بكُراع النّمل المتوفّى سنة ٣١٠، ولا نعلم عن كتابه هذا شيئاً.

الأنصاريّ[١] ولكثير غيرِهم كُتُبٌ خصُّوها وسَمَّوْها باسم النّبات والشّجر.

ولإمام هذا النّوع أبي حَنِيفة الدِّينَوْرِيِّ[٢] كتابُ «النّبات»[٣]، وهو البحر

(١) هو أبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاريّ الخزرجيّ المتوفّى سنة ٢١٥، وكتابه هذا ذكره أصحاب التّراجم والفهارس ولا يُعلم عنه شيءٌ اليوم.

(٢) هو أحمد بن داود بن وَنَنْد الدِّيَنَوريّ المُتوفّى سنة ٢٨٢، من نوادر الرّجال جمع بين حِكمة الفلاسفة وبيان العرب، ترك الكثير من المصنّفات، ولكنّها فُقدت كلُّها إلّا قِطَعاً مِن كتاب النّبات.

(٣) قال الشّيخ - رحمه الله تعالى - في الآثار (١/ ٣٧٩): «هذا كتاب الحيوان (هكذا في المطبوع، والصّحيح أنّه كتاب النّبات) لأبي حنيفة شُدّت في طلبه الرِّحال مِن عشرات السِّنين، وأُنفقت على تحصيله بِدَر المال، وتبارى هواة الكتب في طلبه في جميع أقطار الأرض فلم يُعثر له على أثر، وإنّ مَن يقرأ ما ينقله عنه ابن سِيدَة في كتاب «المخصَّص» يَسترخص في سبيله كلّ غالٍ، ويستسهل كلّ صعب» وقد أثنى العلماء على هذا الكتاب كثيرا، (واعتبروه أجلَّ ما صُنّف في لغة النّبات دقّة وتفسيرا واستيفاءَ مادّة، وقد أَخنَى الزّمانُ على جُلِّ هذا الكتاب الجليل وأبقى على بعضه في صحف مخطوطة، نَشر المستشرق السّويدي لوين قطعة منه بليدن سنة ١٩٥٣، والدكتور محمّد حميد الله جزأه الثّالث وقسماً من جزئه الخامس) معجم المعاجم لإقبال (ص١١٧).

ويوجد بالمكتبة الأهليّة بباريس مخطوطة مجهولة الاسم والمؤلّف في علم النّبات فيها اقتباسات مهمّة عن أبي حنيفةَ، خاصّة ذِكر الموز، لا توجد عند ابن سيدة في كتابَيْه المحكَم والمخصّص، ولا ابن منظور ولا غيرِهما ممّن نقلوا عن أبي حنيفةَ مزايا النّباتات. انظر مجلّة معهد المخطوطات العربيّة (٢/ ج١- ص٢٤٥).

الذي لا ساحلَ له، وهو مفخرةُ اللّغة العربيّة بلا مُنازِع، وهو الكنز الذي لم يَرْزَأْنا الدّهْرُ بأَنْفَسَ منه ولا أثمنَ ولا أغلى، وإنَّ مُصيبَتَنا به لتَفُوقُ مصائبَنا في الأَعْلاق الثّمينة، وإنَّ خسارتَنا له لَخسارةٌ يَعِزُّ عنها العِوَض، لولا سَلْوَةٌ بتلك الشَّذَراتِ التي يَنْقُلُها عنه أصحابُ المعاجم مباشرةً أو بواسطة[1].

وإنّ هذه الكتبَ الخاصّةَ بالنّبات والشّجر لَبُرهانٌ مستقِلٌّ قائمٌ على مقدار اتِّساع هذه اللّغة الشّريفة وإحاطَتِها[2]، ودليلٌ من جهةٍ أخرى على فَضْلِها على المعارف البشريّة، وجوابٌ مُسْكِتٌ للذين يَهْرِفُون[3] بتَنَقُّصِ هذه اللّغة ويَرْمُونَها بضِيق العَطَنِ[4] والقُصُورِ عنِ استيعاب المعارف، وتَوْبيخٌ مُرٌّ لزَعْنَفَةٍ[5] مِن أبناء العرب العاقّينَ الذين يَلْوُونَ أَلسِنتَهُم بمثلِ هذا الكلام، ويُشايِعُون لِجهلهم

(١) فقد ذكره ابن سِيدَه في الكتب التي ضَمَّنَها كتابَه العظيم «المحكَم» وأَكْثَر مِن النّقل عنه في «المُخَصَّص»، وذكره عبد القادر البغداديّ ضمن مصادر كتابه «الخزانة» ونقل منه قِطعا كاملةً، وذكره العلاّمة مرتضى الزّبيديّ ضمن الكتب التي اعتمد عليها في «تاج العروس».

(٢) وقد عدّ منها الأستاذ أحمد الشّرقاوي إقبال في كتابه «معجم المعاجم» (الذي عرّف فيه بأكثر مِن ألف وخمسمائةِ كتابٍ)- عدّ منها أكثر من ثلاثين كتابا بين مخطوط ومطبوع.

(٣) من الفعل هَرَف يهرِف، والهَرَف الهَذَر والهذيان.

(٤) العَطَن في الأصل هو موطن الإبل، وهو مجاز.

(٥) هي الطّائفة من النّاس تَشِذُّ وتنفرد.

وفُسُولَةِ[١] أخلاقهم وانحرافِ أمزجتِهم العربيّة أعداءَها على ذمِّها والزِّرَايَة بها والتّقليلِ من خَطَرِها، وأنا لا أرى دواءً لهذه الزَّعْنَفَةِ التي ضَلَّت عن جَهلٍ إلا الاحتقارَ، فما بفَقْدِهِم يَنْقُصُ عَدِيدُ العربِ، ولا برَطَانَتِهم[٢] يَقِلُّ شأنُ العربيّة ويَخِفُّ وزنُها.

وإنّهم عندي لأَهْلٌ للرّحمة بما جَهِلوا، لا للحسد على ما علِموا، ولو علِموا أو حَفِظوا فصلاً واحداً مما وضعته العرب لجماعات الحيوان وطوائفه، كالإِجْل[٣] والرِّجْل[٤] والسِّرْب[٥] والعانَة[٦] والقَطِيع[٧] إلى آخر هذا النّوع أو لأصواتها – وما أكثرها – لأَشْرفوا على بحر لُجّيٍّ يجدون عنده رَطَانَتَهم ضَحْضَاحاً[٨] غُمَراً[٩]، لا

(١) الفُسُولة: الرَّذالة وقلّة المُروءَة.

(٢) الرَّطَانة، بفتح الراء وكسرها: الكلّام بالأعجميّة.

(٣) هو القطيع من بقر الوحش، ويُجمع على آجال.

(٤) هو القطعة العظيمة من الجراد، ويُجمع على أَرْجال.

(٥) هو القطيع من الظِّباء، ويُجمَع على أَسْراب.

(٦) هو القطيع من حُمُر الوحش ويُجمع على عُونٍ.

(٧) هو الطّائفة من الغَنَم والنَّعَم.

(٨) الضَّحْضَاح الماء اليسير.

(٩) كصُرَد وزناً: قَدَحٌ صغير.

يَغْمُرُ(١) كعبَ إنسان(٢).

ولو علِموا أنّ العرب تقول: خطيب وَعْوَعٌ(٣) فيكونُ مدحاً، وخطيب وَعْوَاعٌ(٤) فيكونُ ذمّاً، ولهم في كلّ كلمة مَرْمًى مِن الاشتقاق مُصِيبٌ، لو عَلِموا

---

(١) يُغطّي ويستر.

(٢) هذا بابٌ من التّصنيف في هذه اللّغة الشّريفة، يذكر فيه مُصنِّفوه الفرق بين أسماءِ جماعات الحيوان، فيُقال مثلا: خَيْط نَعامٍ وسِرْب قَطًا ورَجْلَة جراد، ويذكرون فيه أسماء هذه الجماعات من حيث العددُ، كالذَّوْد من الإبل لِما بين الثّلاثة والعشرة، والصِّرْمَة لِما فوق العشرة إلى الأربعين وهكذا، ويذكرون فيه الفرق بين أصوات الحيوان كالزَّئير للأسد والعُواء للذّئب والنُّباح للكلب وهكذا في سائر الحيوان.

وهذا النّوع مِن الكتب يُسمَّى بمعاجم الفِرَق، ومن أشهرها كتاب «الفِرَق» لأبي محمّد ثابت بن أبي ثابت الكوفيّ اللّغويّ وهو مطبوع في المغرب بتحقيق الأستاذ محمّد الفاسيّ، وكتاب «الفِرَق» لأبي سعيد الأصمعيّ نشره الدّكتور دافيد هنريش مولر سنة ١٨٧٦ وكتاب «الفِرَق» لأبي عليّ محمّد بن المستنير المعروف بقُطْرُب نشره الدّكتور رودلف. انظر معجم المعاجم لإقبال (ص١١٦ وما بعدها).

(٣) هو الخطيب البليغ المحسن، وهو نعتٌ حسنٌ، قالت الخنساء:

هُــوَ الفَــارِسُ المُسْــتَعِدُّ الخَطِيــ ـــبُ فِي القَـوْمِ وَاليَسَــرُ الوَعْـوَعُ

الدّيوان (ص٧٨-المعرفة).

(٤) هو الرّجل المِهْذار كثير الكلام، وهو نعت قبيح، أنشد اللّيث:

نِكْسٌ مِنَ الأَقْوَامِ وَعْوَاعٌ وَعِيّ

ذلك ونَحْوَه من أسرار الاشتقاق، وهو بابٌ من أبوابٍ وفصلٌ من كتابٍ وقَزَعَةٌ[1] من سحابٍ، لأقْلَعوا عن غَيِّهم وكَفُّوا من غُلَوَائِهِم[2]، ولكنّه الجهلُ يُعْمي ويُصْمي.

وإذا أردتَ أن تفهمَ بعضَ السِّرِّ في خِصِّيصَةِ[3] العرب في الوصف، فاعلم أنّ الصّحراءَ لَبِسَتْهُم ولَبِسُوها حتّى أصبحت حياتُهم جزءاً منها فأورَثَتْهُم مَلَكَةَ التّأمُّل، ولو سمَّيْناها مَلَكَةَ الحوَاسِّ لكان هذا هو الصَّحيحَ ومنها جاءتهم دِقَّةُ الحِسِّ ولَطافةُ الشّعور وصِدقُ التّصوير، ولا نشترط على التّاريخ أن يَأتِيَنا بأمّة أُمِّيَّة من أُمَمِه يُطاولُ بها أُمَّةَ العرب في هذا الباب، بل نتنازلُ وندعوه لأن يأتِيَنا بأمّة من أُمم الحضارة تستطيعُ أن تقفَ بجانب العرب في هذا الميدان.

❁ ❁ ❁

انظر الجمهرة (١/ ١٦٠- حيدر آباد) تاج العروس (٢٢/ ٣٤٨).

(١) القَزَعة: القطعة من السّحاب.

(٢) بضمّ الغين وبفتح اللّام وتُسَكَّن: الغُلُوّ، وهو مجاوزة الحدّ.

(٣) مصدر، بمعنى الاختصاص.

فَصْلٌ

ونعود إلى الحديث عن الضَّبّ، فأنا أعترف أنّي ما حقّقتُ معنى المثل العربيّ المشهور «أَعْقَدُ مِنْ ذَنَبِ الضَّبِّ»[١] إلا بعد دراستي لِضَبِّكُم، وأنّ هذا المثلَ لَأَشْهَرُ مِن «قِفَا نَبْكِ...»[٢]، وإنَّه لَمَمْضُوغٌ بكلّ لسانٍ، مَمْجُوجٌ[٣] على سِنِّ كلّ قلمٍ، تقرأه في كلّ صحيفة وفي كلّ كتاب، وما أكثرَ العُقَدَ والتّعقيدات في زماننا التي يَحْسُنُ ضَرْبُ هذا المثلِ لها.

ولو أنّ الذين يَضربون هذا المثَلَ تقليداً واتّباعاً رَأَوُا الضَّبَّ ورَأَوْا ذَنَبَه وتَحَسَّسُوا تلك العُقَدَ الشَّائِكة في ذَنَبِه، لَكان تَمَثُّلُهم أَوْقَعَ في نفوسهم ولَكانت نفوسُهُم أَشَدَّ تأثُّراً به، وعلى مقدار التّأثُّر يكون التّأثيرُ، ولَعَلِموا مع ذلك إصابةَ العرب في مواقع التّمثيل ومَرامِيَهم في مَضارِب الأمثال، وأنَّ في المخلوقات أشياءَ

(١) انظر المثل في المستقصى (١/ ٢٥٠) جمهرة الأمثال (٢/ ٦٥) مجمع الأمثال (٢/ ٥٠).

(٢) مطلع قصيدة امرئ القيس اللّاميّة الشّهيرة بالمعلّقة وتتمّة البيت:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَىٰ حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَىٰ بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

(٣) مَجّ الشّراب أي رماه.

كثيرةً ذاتَ عُجَرٍ[١] أو عُقَدٍ أو أُبَنٍ[٢].

ولكنَّ العربَ آثَرُوا الضَّبَّ في التّمثيل لأنّه حيوانٌ صغيرٌ مُسالِمٌ لَيِّنُ المِجَسَّة[٣] كَلِيلُ[٤] الظُّفر إلا عن حَفْرِ الكُدَى[٥] ليَتَّقِي لا لِيُتَّقى، ومع هذه الصّفاتِ الرَّخْوَة فذَنَبُه مُعَقَّدٌ ذاك التعقيدَ العجيبَ، وهو شَائِك، وهو لِحَامله شِكَّةٌ[٦] وحامِلُه منه شَاكِي السّلاح[٧]، وقد حكى لي بعضُ مَن رآه يَضْرِبُ به الأفعى حتّى يقتلَها.

وقد أَكْثَرَتِ العربُ من ضرب الأمثال بهذه الزّواحف والحشرات الحقيرة، فكان ذلك تَنْويها بشأنها وتنبيها للمُتَوَسِّمين[٨] والباحثين في مخلوقات الله لِيزدادَ المؤمنُ إيماناً بالخالق ويزدادَ المتفقِّهُ فِقهاً في حقائقها، ويزداد الباحثُ توسُّعاً في

(١) جمع عُجْرة، وهي العُقْدة في الخشبة ونحوها.

(٢) جمع أُبْنَة، وهي العُقدة في العود.

(٣) موضع الجسّ، والجسّ هو المسّ باليد.

(٤) أي ضعيف.

(٥) جمع كُدْية وهي الأرض الغليظة، والصَّفاة العظيمة الشّديدة.

(٦) الشِّكة بكسر الشّين: السّلاح.

(٧) أي في سلاحه شوكة وحِدّة.

(٨) توسَّم الشيء: تخيّله وتَفَرَّسَه.

المعرفة، والمعرفة ميزة هذا الجنس.

وقد قالوا «ضَلَّ دُرَيْصٌ نَفَقَهُ»[١]، وهو تصغير دِرْص اسمُ لجرْو الفأر، وقالوا: «تَخَلَّصَتْ قَائِبَةٌ مِنْ قُوبٍ»[٢] للفَرْخ من البيضة، وهذا بابٌ واسعٌ في أمثالهم يَقْبُح بالمُتأدِّبين مِن ناشِئَتِنا أن لا يجعلوا له حظّاً مِن حفظهم وبحثهم.

وأنا فقد رأيتُ الضَّبّ مسلوخاً ومطبوخاً – وإن لم آكُل لحمه – عند البدو في نَجْدِ الغربيّة مِمّا يلي المدينة المنوّرة، ورأيتُه عند دافَّةٍ[٣] مِن أعراب الحِجاز دَفَّت على المدينة في عامٍ مُمْحِلٍ[٤]، فما أثارت رُؤيته في نفسي إلا ذكرى أنّه عُرِضَ على مائدة رسول الله ﷺ فرفع يدَه، فقيل له أَحَرامٌ هو يا رسول الله؟

---

(١) تصغير دِرْص بكسر الدّال ويُفتَح والكسر هو اللّغة الفصحى، وهو ولد القنفذ والأرنب واليَرْبوع والفأرة والهرّة ونحو ذلك، وأصل الضّلال الهلاك وفي التّنزيل: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ذهبنا وهلكنا، وهو مثل يُضرب لمن أخطأ حجَّتَه. انظر المثل في جمهرة الأمثال (٢/ ٦) مجمع الأمثال (١/ ٤١٩) فرائد الخرائد في الأمثال (٣٢٣) المثل (١٧٣) المستقصى (٢/ ١٤٩).

(٢) أي تخلّصت بيضة من فرخ، والقُوب بالضّمّ هو الفرخ، والوجهُ أن يُقال فرخ من بيضة. من الفعل قَبَوْت الشّيءَ أي جمعتُه، يُضرب مثلا للرّجل إذا تخلّص من ضيق وكرب. انظر المثل في جمهرة الأمثال (١/ ٢٢٦) المثل (٣٩٣) المستقصى (٢/ ٢٣).

(٣) هي الجماعة من النّاس تُقبِل من بلد إلى بلد طلبا للرّزق.

(٤) فعله أَمْحَل، أي عام مُجْدِبٌ لم ينزل فيه مطرٌ.

فقال: « لَا أُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ بِأَرْضِ قَوْمِي وَإِنَّ نَفْسِي لَتَعَافُهُ »(١) وفي هذا الجواب رواياتٌ(٢)، وإنَّ خالدَ بنَ الوليد حين سمع هذا الجواب تناوله بين يَدَيْ رسول الله فأكله، ويُؤْخَذُ من جوابه ﷺ أَنَّ الضَّبَّ غيرُ موجود بمكّة في زمنه(٣).

ولم أُوَفَّق إلى سؤال أهل مكّةَ عنه في زمننا هذا، ولو سألتُ لَكان زيادةً في

---

(١) أخرجه البخاري في «باب الضَّبّ» مِن «كتاب الذّبائح والصّيد» وساق فيه حديثين: حديثَ ابن عمر وحديثَ خالد بن الوليد. فتح الباري (٩/ ٦٧٨ــ ٦٨٤). وأخرجه مسلم في «باب إباحة الضَّبّ» مِن «كتاب الصّيد والذّبائح». شرح مسلم (١٣/ ٢٤١٩). وأخرجه مالك في «باب أكل الضَّبّ» مِن «كتاب الضَّحَايَا وما يُجزِئ منها» انظر شرح اللّكنويّ على موطأ محمّد (٢/ ٢٣٨).

(٢) في رواية سعيدِ بنِ جُبَير: «فَتَرَكَهُنَّ النَّبِيُّ ﷺ كالمُتَقَذِّرِ لَهُنَّ، وَلَوْ كُنَّ حَرَاماً لَمَا أُكِلْنَ عَلَى مَائِدَةِ النَّبِي ﷺ ولمَا أَمَرَ بِأَكْلِهِنَّ» وفي رواية يزيد بن الأصمّ عند مسلم: «فَقَالَ لَهُمْ كُلُوا فَأَكَلَ الفَضْلُ وَخَالِدٌ وَالمَرْأَةُ» وفي رواية الشّعبي عن ابن عمر قال النّبيّ ﷺ: «كُلُوا وَأَطْعِمُوا فَإِنَّهُ حَلَالٌ أَوْ قَالَ لَا بَأْسَ بِهِ وَلَكِنَّهُ لَيْسَ طَعَامِي» وفي رواية سليمان بن يَسَار عند مالك: «فَقَالَ النَّبيّ ﷺ: كُلَا - يَعْنِي لِخَالِدٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ - فَإِنَّنِي يَحْضُرُنِي مِنَ اللهِ حَاضِرَةٌ». انظر لهذه الروايات الفتح (٩/ ٦٨١).

وأمّا حكم أكله فجمهور العلماء من أيِمَّة المذاهب على جواز أكله، ونقل النّوويّ الإجماعَ على ذلك وفيه نظر، فقد رُوي القولُ بتحريم أكله عن قوم نقله عنهم القاضي عِياض، ورُوي القولُ بكراهة أكله عن أبي حنيفةَ وأبي يوسف ومحمّد بن الحسن، وقول الجمهور هو الحقُّ للأحاديث السّالفة.

(٣) جزم بهذا ابن العربيّ وابن عبد البَرّ وغيرُهم كثيرٌ من أهل العلم.

العلم واليقين، لِأنّ الحديثَ ظَنّيٌّ وإن تَعدَّدَت طُرُقُه واشْتَهر بإخراج الصّحاح له، وهذا التّقصير الذي شاهدتُّه وشَهِدتُّ به على نفسي ناشِئٌ عن قُصُورٍ في مَلَكَةِ التأمّل والبحث إذ ذّاك، لأنها كانت مُزاحَمَةً بالأبحاث الدّينيّة، وإنّ رواية هذا الحديث في مجالس الرّواية لا تُثير في النّفس أكثرَ من الاهتمام بحكم أكل لحمه شرعاً، وهو اهتمامٌ له حظٌّ واعتبار في موضوعه وجَوّه الخاصّ.

ولكنَّ المثالَ الباردَ الفَجَّ (الصَّامِطَ)[1] الذي لا يُثير في النفس اهتماماً بل يُثير فيها اغتماماً هو المثالُ الذي تعلّمناه من كتب النّحوِ، وهو قولهم :«...هذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ» يُمَثِّلُون به للجرّ بالمُجاوَرة[2] أو بالتَّوَهُم لا أدري! وإنّما الذي أدريه هو أنّ هذا النّوعَ مِن الجرّ مسموعٌ عن العرب، وهو من شُذوذاتِهِم اللّغويّةِ وانحرافاتِهِم عن مقاييس لغتِهِم، وهو مقبولٌ منهم لكنّه مَقصورٌ على ما سُمِع منهم، فلا يَسُوغُ لنا نحن طَرْدُه من كلامنا حتّى لا نُفْسِدَ اللّغةَ على أنفسنا بهدم القواعد الصّحيحة والجري على غيرِ منهاج[3].

---

(١) كلمةٌ عامّيّةٌ معناها ثقيل الظّلّ. (من المطبوع).

(٢) الـمُجاورة عامل من عوامل الجرّ المُختلَف فيها عند النُّحاة كما سيأتي، والمقصود بها عندهم أنّ عاملَ الجرِّ ليس الإضافةَ أو حرفَ الجرِّ، وإنّما مُجاورةُ الاسم لِما هو مجرورٌ بالإضافة أو بالحروف.

(٣) اعلم – رحمني الله وإيّاك – أنّ النُّحاة اختلفوا في عامل الجرّ بالجِوار على ثلاثة مذاهبَ – على التّحقيق – بعد ما اتّفقوا على وُرود هذا الأسلوب في لغة العرب وإنِ اختلفوا في تـ[سـ]ـميته أو تأويله.

=

ولهذه الشُّذوذاتِ في العربيّة فلسفةٌ خاصّة لم يُشْبِعنا أحدٌ بالحديث عنها حتّى الآن، ولو وجدتُ مُتَّسعاً مِن الوقت لكتبتُ فيها ما يَصِحُّ أن يكونَ نَواةً

المذهب الأوّل: من رأىٰ جوازَه وجوازَ القياس عليه، وهم الأخفش وابن مالك وابن هشام وأبو البقاء وغيرُهم.

المذهب الثّاني: مَن أنكر الخفض علىٰ الجِوار وأَوَّلَ ما ورد من ذلك، وهم ابن جنّيّ وأبو عليّ الفارسيُّ والسّيرافيّ والزّجّاج، قال ابن جنّيّ –رحمه الله تعالىٰ–: «وتلخيص هذا أنّ أصله: هذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ جُحْرُه، فيجري (خَرِبٍ) وصفاً علىٰ (ضَبٍّ) وإن كان في الحقيقة للجُحْر، كما تقولُ: مررتُ برجلٍ قائمٍ أبوه، فتجري (قائماً) وصفاً علىٰ (رجلٍ) وإن كان القيام للأب لا للرّجل لِما ضُمِّن مِن ذكره، والأمر في هذا أظهر مِن أن يُؤتىٰ بمثال له أو شاهد عليه، فلمّا كان أصلُه كذلك حُذف الجُحْر المضاف إلىٰ الهاء وأُقيمت مُقامَه فارتفعت.» انظر الخصائص (١/ ١٩٢).

المذهب الثّالث: من رأىٰ جوازَ هذا الأسلوب ولكن لم يُجِز القياسَ عليه، أي جعله من قَبِيل الشّاذّ، وكأنّ هذا المذهبَ وَسَطٌ بين المذهبين، وممّن قال به ابن الأنباريّ، قال –رحمه الله–: «وقولهم جحر ضب خرب محمول علىٰ الشّذوذ الذي يُقتَصر فيه علىٰ السّماع لقلّته ولا يُقاس عليه.» الإنصاف (٢/ ٦١٥)، ونقل ابن جنّيّ الإجماعَ علىٰ هذا المذهب، وإن خالفه برأيه الذي سبق بيانُه، انظر الخصائص (١/ ١٩١-١٩٢)، وعبارة سيبويه محتمِلةٌ له –إن لم تكن نصّاً عليه–، تأمّل قولَه: «وممّا جرىٰ نعتاً علىٰ غير وجه الكلام (هذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ) فالوجه الرّفعُ وهو كلامُ أكثر العرب وأفصحِهم وهو القياسُ».

ففي قوله: (الوجه الرّفع) وقوله: (وهو القياس) دِلالةٌ علىٰ أنّ مُقابِلَه هو الشّذوذ، وهذا الرّأي هو الذي ارتآه الشّيخ –رحمه الله تعالىٰ–، وهو سالم من التّأويل الذي ادّعاه ابن جنّيّ والسّيرافيّ ومن اعتراضات الجمهور عليهم.

في الموضوع، إذا تَعاهَدَه الباحثون أصبح شجرةً ذاتَ أُكُلٍ شَهِيٍّ[١]، ولِفيلسوف هذا الفنّ أبي الفَتْح عثمانَ بنِ جِنِّيٍّ[٢] جُمَلٌ مُتفرّقةٌ في هذا الموضوع لكنّها تَنْطوي على نَظَراتٍ سديدةٍ وتَدلُّ على انْفِساحِ ذَرْعِ الرّجل في هذا العلم[٣].

وإذا كان هذا النّوع من الجرّ مسموعاً مَوْقوفاً على السَّماع فلستُ على ثقة مِن أنَّ مثال النُّحاةِ مسموعٌ مِن العرب[٤] وإنّما هو مثالٌ سُوقِيٌّ انْتَحَلُوه ثمّ قَلَّد آخِرُهم أوّلَهم فيه على عاداتِهِم، وهل يَصِحُّ لهم أن يُمَثِّلوا لمسألةٍ سَماعِيَّةٍ بمثال مَصنوعٍ ؟ لا.

ودليلي على أنّ المثالَ مصنوعٌ أمران:

الأوّل: أنّ نُطْقَ العرب لا يُساعد على ما ادَّعاه النّحاة فيه، لأنّ كلمة (خَرِبٍ)

---

(١) للعلاّمة محمّد الخِضر حسين بحثٌ نفيسٌ حول القياس في اللّغة في كتابه «دراسات في العربية وتاريخها» (ص٩ إلى ص١٠٣)، كما كتب العلاّمة عبد الرّحمن الحاجّ صالح رئيس مجمع اللّغة الجزائريّ بحثاً في ذلك في مجلّة المجمع (العدد ٩/ ص٥).

(٢) هو أبو الفتح عثمان بن جنّيّ النّحويّ الموصليّ المتوفّى سنة ٣٩٢، صاحب المصنّفات الكثيرة في العربيّة.

(٣) انظر لذلك الخصائص (١/ ٩٦،١١٧،٣٥٧،٣٨٥،٣٩١) (٢/ ٤٠)

(٤) ذكر هذا المثال الكثير من أئمّة اللّغة الثّقات ونسبوه إلى العرب، منهم سيبويه –رحمه الله– الكتاب (١/ ٤٣٦) وابن جنّي في الخصائص (١/ ١٩١) (٣/ ٢٢٠).

التي يَدّعي النّحاةُ جَرَّها جاءت مقطعا في الجملة لم تَعْقُبْها كلمةٌ أخرى، فإذا نَطق بها عربيٌّ نَطق بها ساكنةَ الآخِرِ بلا شكّ، فمِنْ أين يَظهرُ الجرُّ الذي ادَّعَوْه فيها؟ (١)

ووَدِدْتُ لو ذاكرتُ بعضَ نُحاةِ العصرِ المفتونين بالمباحث اللّفظيّة العَقيمة في هذا التَّوجيه لِأسمعَ رأيَهم، وما عسى أن يَأْتُوا به من حُجَجٍ فارغة، وكم في كلام الفارغين من تسليةٍ لِـلهمِّ وتَزْجِيَةٍ للوقت وتَرْويحٍ للخَواطر المَكْدُودة بشرطِ أن يكونَ السّامعُ مَوْفُورَ الحظِّ مِن الصّبر.

والثّاني: أنّ معنى المثال - على برودته وجفافه - لا يتّفق مع ما يَعرف العربُ عن الضَّبّ مِن أنّه لا يَحْفِر جُحْرَه إلا في الكُدَى (جمعُ كُدْيَة)، وهي جُبَيْلٌ صَلْبُ الأرض مُتماسكُ التّراب، ولذلك يُضيفونه إليها كثيراً فيقولون ضَبُّ الكُدْيَة

---

(١) و الجواب أنّنا لو أعملنا هذا الدّليل فيما نُقل إلينا من كلام العرب لَمَا سلِم لنا شيءٌ للاحتجاج به، إذ لسانُهم لا يُطاوِعُهم على غير السّكون في مواطن الوقف ولكنّ العرب مُؤْتَمَنون فيما نقلوا ورَوَوْا، إذا صحّ ذلك النّقل عنهم، أو يُقال بأنّ العرب نطقوا كلمةَ (خَرِبٍ) موصولةً بغيرها، فاقتصر الرّواةُ والنَّقَلَةُ على موضع الاحتجاج فقط.

وعَلِم الله أنّي لستُ مِن نحاة العصر ولا مِن المفتونين بمباحثه اللّفظيّة ولا المعنويّة، وإنّما قراءتي لهذه الرّسالة اقتضت كتابةَ هذه الأسطر، فإن كان الحقَّ فهو مقصِدي، وإن كان غيرُه فـ (كم في كلام الفارغين من تسلية للهمّ وتزجية للوقت...) كما قال الشّيخ رحمه الله تعالى.

وضبّ الكُدَى[١]، وفي مقصورة ابنِ دُرَيْد بيتُ مختومةٌ بضَبِّ الكُدَى ولا أذْكُرها الآن وليس عندي ما أُراجِعُها فيه[٢]، وقد قال الشّاعر:

سَقَىٰ اللهُ أَرْضاً يَعْلَمُ الضَّبُّ أَنَّهَا بَعِيدٌ عَنِ الأَدْوَاءِ طَيِّبَةُ البَقْلِ

بَنَىٰ بَيْتَهُ فِيهِ عَلَىٰ رَأْسِ كُدْيَةٍ وَكُلُّ امْرِئٍ فِي حِرْفَةِ العَيْشِ ذُو عَقْلِ[٣]

فقد وَصَفَ هذه الأرضَ التي اختارها الضَّبُّ لِسُكناه، بأنّ الضَّبَّ – وهو الاختصاصيُّ في هذه الهندسة – كأنّه يَعلمُ أنها بعيدةٌ مِن الآفات، وأكبرُ الآفاتِ في نظر الضَّبّ السُّقوطُ والانهيارُ والخرابُ.

وقال الشّاعر الآخر- فزاد المعنى المرادَ توضيحاً- وهو يتحدّث عن الضَّبّ:

---

(١) والجواب علىٰ هذا الدّليل أنّ اللّغويّين والنّحاة لا يشترطون في صحّة الاحتجاج بالمثال أن يكون ذا معنىً سليمٍ يُعجب السّامع، وإنّما مدارُ الأمر علىٰ صحّة النّقل عن العرب، دون اعتبار أمرٍ آخرَ، وهم كالـمُجمعين علىٰ هذا.

(٢) هي قوله:

مـا خِلْـتُ أنّ الـدّهرَ يُثْنيني عـلىٰ ضَرَّاءَ لا يَرضَى بها ضَبُّ الكُـدَىٰ

والضَّرّاء هي الصّخرةُ الصَّمّاء، انظر شرح مقصورة ابن دُرَيد لعبد الوصيف محمّد (ص٢٢).

(٣) ذكرهما الجاحظ في الحيوان (٦/ ٥٧ – هارون) من غير نسبة، مع بعض تغيير، فهما عنده بلفظ (عَذِيَّةُ بَطْنِ القَاعِ) والعَذِيَّة هي الطّيّبة، والبيت الثّاني عنده بلفظ: (يُرَدِّدُ بِهَا بَيْتاً)، وذكرها في (٧/ ٥٦- هارون) بلفظ: (بَعِيدٌ عَنِ الآفَاتِ طَيِّبَةُ البَقْلِ، بَنَىٰ بَيْتَهُ مِنْهَا...).

وَيَحْفِرُ فِي الكُدَىٰ خَوْفَ انْهِيَارٍ   وَيَجْعَلُ بَيْتَهُ رَأْسَ الوَجِينِ[١]

والوَجِين هو الأرض الصّلبة الغليظة، ومِن هذه الكلمة جاء قولهم: رجلٌ مُوَجَّنٌ، قويٌّ عِظامِ الأضلاع والصّدر، ومنها مِيجَنَةُ الثّيابِ، آلةٌ تُدَقُّ بها[٢]، ومنها جِلدٌ مُوَجَّنٌ: مضروبٌ بعد الدَّبْغ حتّى تتداخلَ أجزاؤه وتَلْطُفَ فيَلِينَ مع القوّة، فهذا البيت شاهدٌ على أنّه ليس جُحْرَ ضَبّ خَرِباً، ولهذه الخاصّيّة في اختيار الضَّبّ للكُدَى تَصِفُه العربُ بصفةٍ مُلازِمةٍ فيقولون «ضَبٌّ دَامِي الأَظَافِيرِ» جمعُ أُظْفورٍ، قال الشّاعر[٣]:

---

(١) البيت من قطعة من ستّة أبياتٍ ذكرَها الجاحظُ في الحيوان (٦/ ٤٤- هارون)، قال: «وأنشدني فَضَّال». ثم ذكرها وأوّلُها:

وَبَعْضُ النَّاسِ أَنْقَصُ رَأْيَ حَزْمٍ   مِنَ اليَرْبُوعِ وَالضَّبِّ المَكُونِ

وهي عنده بلفظ: ويجعل مَكْوَه، والمَكْو هو: جُحْر الثّعلب والأرنب ونحوهما.

(٢) وتُجمَع علىٰ مَوَاجِنَ، قال عامر بن عقيل السّعديّ:

رِقَابٌ كَالمَوَاجِنِ خَاضِبَاتٌ   وَأَسْتَاهٌ عَلَىٰ الأَكْوَارِ كُومُ

انظر اللّسان (مادّة: وجن).

(٣) هو خالد بن الطَّيْفان بفتح الطّاء نسبة إلىٰ أمّه.

تَرَىٰ الشَّـرَّ قَـدْ أَفْنَـىٰ دَوَائِـرَ وَجْهِـهِ كَضَبِّ الكُدَىٰ أَفْنَـىٰ أَنَامِلَـهُ الحَفْـرُ[(١)]

ومِن تَهَكُّمَاتِ المعَرِّيّ وهَمَزاتِه، أنّ صاحبَه أبا القاسم المغربيّ المشهور في علم التّاريخ والأدب بالوزير المغربيّ[(٢)]، اختصر في حَداثَةِ سِنِّه كتابَ «إصلاح المنطق»[(٣)] ليعقوبَ بنِ السِّكِّيتِ[(٤)]، وأهدى منه نُسخةً إلى صَفِيِّه المعَرِّيّ، وكانت بينهما أسبابٌ متينةُ العُرَى، فكتب له المعَرِّيُّ جوابَ الإهداء رسالةً من أَبْدَعِ رسائله، وفيها نَقْدٌ لكتاب ابن السِّكِّيتِ على طريقةِ المعَرِّيّ الغريبة في سُخْرِيّته

---

(١) والبيت من قطعة ذكرها الجاحظ في الحيوان (٦/ ٣٩- هارون) وهي:

وَمَـوْلًى كَمَـوْلَى الزِّبْرِقَـانِ دَمَلْتُـهُ كَمَا دُمِلَتْ سَاقٌ تُهَاضُ بِهَا كَسْـرُ
إِذَا مَـا أَحَالَـتْ وَالجَبَـائِرُ فَوْقَهَـا مَضَىٰ الحَوْلُ لَا بُـرْءٌ مُبِينٌ وَلَا جَبْرُ
تَـرَاهُ كَـأَنَّ اللهَ يَجْـدَعُ أَنْفَـهُ وَأُذْنَيْـهِ إِنْ مَـوْلَاهُ ثَـابَ لَـهُ وَفْـرُ
تَرَىٰ الشَّـرَّ قَـدْ أَفْنَـىٰ دَوَابِـرَ وَجْهِـهِ كَضَـبِّ الكُـدَىٰ أَفْنَـىٰ بَرَاثِنَـهُ الحَفْـرُ

والدَّوابِر جمع دابِر ودابِرة، وهي أصل الشّيء، وفي رواية: دوائِر بالهمز وهي التي ذكرها الشّيخ. والبَراثِن جمع بُرْثُن وهو الظُّفُر.

(٢) سيأتي الكلام عليه (ص٦١).

(٣) توجد نسخة من مختصر الوزير في مكتبة الإسكوريال وفيض الله أفندي بتركيا. انظر معجم المعاجم لإقبال (ص٧٨).

(٤) هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاقَ ابن السِّكِّيت، إمامٌ في اللّغة والأدب، مِن كتبه «إصلاح المنطِق» قال المبرّد: «ما رأيتُ للبغداديين كتاباً أحسنَ منه»، توفّي سنة ٢٤٤.

العجيبة يقول فيها - إن لم تَخُنِّي الذّاكرة - : «وقد أكْثَرَ يعقوبُ من الاجتهاد في إقامة الأَشْهاد - يعني الشَّواهِدَ - حتّى ذَكَر رَجَزَ الضَّبِّ وإنّ مَعَدّاً مِن ذلك لَجِدُّ مُغْضَبٍ، أَعَلَى فصَاحتِه يُسْتَعانُ بالقَرْض، ويُسْتَشهدُ بأَحْناشِ الأرض؟ ما رُؤْبَةُ عنده في نَفِيرٍ، فما قَوْلُكَ في ضَبٍّ دَامِي الأَظَافير...»

وهذه الرّسالةُ الرّائعة مطبوعةٌ مُصحّحةٌ فيما طَبع كامل كيلاني مع «رسالة الغُفران»، فإن كانت عندك فراجِعْها، فلعلّ الحافِظةَ لم تَضْبِط ألفاظَها[1]، ومَحَلُّ الشّاهِد فيها لموضوعنا وَصفُه الضَّبَّ بما كانت تَصِفُه العربُ من أنّه دَامِي الأَظافِير ولا سببَ لذلك إلّا حَفْرُه لجُحْرِه في الكُدَى الصّلبة.

وهذه كلُّها دلائلُ على فساد مثال النّحاة إعراباً ومعنىً، ولا نُنكر أنّ بعضَ جُحور الضِّباب تَخْرَبُ، وقد خَرِبَت مَدائِن الرُّومان والفراعنة فضلا عن جُحور الضِّباب، ولكنّه باردٌ جافٌّ مُتَخاذِلٌ خاذِلٌ لحافِظه، إذ يُوهِمُه خِلافَ الواقع، ومنه ومن أمثاله خُذِلَ المتأدِّبون بكتب النّحو الذين قَعَدَت بهم هِمَّتُهم عن التّأَدُّب بلغةِ العرب مِن شعرِهم وخُطَبِهم، ولم يُحَصِّل واحدٌ منهم مَلَكَةً

(١) هي في رسائل أبي العلاء المعرّي (ص١٨) التي طبعها المستشرق هورس هارت بالمطبعة المدرسيّة بمدينة أكسفورد - بلفظ: «وقد تمادىٰ بأبي يوسف - رحمه الله - الاجتهاد في إقامة الأشهاد حتىٰ أنشد رَجز الضَّبّ...»، ولم نستطع الحصول علىٰ طبعة كامل كيلاني التي ذكرها الشّيخ، واسم رسالة المعرّيّ «الإغْريض».

صحيحةً في هذه اللّغة، ولا ذَوقاً صحيحاً في أَدَبها.

والواجبُ في الأمثال أن تكون جُمَلاً حكيمةً ذاتَ معانٍ مستقيمةٍ وألفاظٍ قَوِيمةٍ حتّى يُحَصِّلَ الحافظُ لها فائدتين: الحكمَ اللّفظيَّ والمعنى الذي يَترُكُ أثرا في النّفسِ، ومِن مجموعِ هذه الأمثلةِ يتكوّنُ الأدبُ والأديبُ، وقد نَعَى ابنُ خَلْدونٍ في زمنه هذا الذي نَعَيْنَاه وانْتَقَدَ من مُزاوِلي النّحو ما انتقدناه وهو لَعَمْرِي نَقْدٌ صريحٌ ما عليه غُبار(١).

وانظر قولَهم «لَا تَأْكُلِ السَّمَكَ وَتَشْرَبِ اللَّبَنَ» كيف لعِبَ به الزّمنُ وتَعَاوَرَه(٢) الاستعمالُ، حتّى أصبحَ ما ليس بصحيحٍ فيه صحيحاً، وأصبح قاعدةً طبِّيَّة، وما هو من الطِّبِّ ولا قاله طبيبٌ ولا هو بصحيحٍ في الواقع والتّجربة ولا بمُطَّرِدٍ ضَرَرُه - على فَرْضِ وقوعِ ضَرَرٍ منه - في جميع الأَمْزِجة.

وقد استعمله النّحاةُ مثالاً لحكمٍ لفظيٍّ فأَدَّوْا مُرادَهُم به على أَكملِ وجه، ولكن لمّا لم يَكُن معناه صحيحاً أَوْقَعَ أُمَماً وأجيالاً في الخطإ، فحفِظه النّاسُ ونَقلوه من الاحتجاج به على حُكمٍ إعْرابيٍّ إلى الاستشهاد به على حكمٍ حَيَويٍّ، وأصبح النّاسُ يَتَحَامَوْنَ(٣) الجَمْعَ بين اللّبنِ والحوتِ عن عقيدة قَرَّرها في

(١) انظر مقدّمة ابن خلدون (ص٤٨٢).

(٢) أي تَداوله.

(٣) أي يَتَوَقَّوْن ويجتنبون.

نفوسهم هذا المثال، وإذا كانت في المَعِدِ مَعِدَةٌ ضعيفةٌ تتأثّر من الجمع بين غِذَاءَيْن، فمُحالٌ أن تكون حجّةً على مَعِدِ بني آدم في عِلْمٍ أو عالَم الكُرُوش.

أمّا أنا وحياتِك - كما يقول الزّاهريُّ - فإنّني ما رأيتُ أَصْلَحَ لمَعِدَتي من الجمع بين السّمك واللّبن، والفَضْلُ لهذه الطّبيعة التي لا تُقَلِّدُ في السَّفَاسِفِ[1].

فَصْلٌ

ورَجَزُ الضَّبّ الذي أشار إليه المعَرّيُّ وانتقد على ابن السِّكّيت الاحتجاجَ به، أَصلُه مَزْعَمٌ من مَزاعِم العرب التي لا حقيقةَ لها، إذ زَعموا أنّ الحيواناتِ كانت كلُّها تتكلّمُ ونَحَلُوا بعضَها كلماتٍ وجُمَلاً وأبياتاً مِن الشِّعر، وليس وَضْعُهُم لِمَا وَضعوا مِن هذا مِن ذلك النّوع المعروف عند جميع الأُمم، وهو وَضْعُهُم أشياءَ على ألسنة الحيوانات إِيغالاً[2] في الحكمة، وتَطَرُّقاً لتربية النّفوس البشريّة وسَوْقِها لفضيلةٍ أو صَدِّها عن رذيلةٍ، فإنّ هذا النّوعَ من الأدب السّامي هو نَمَطٌ

(١) جمع سَفْسَاف وهو الرَّدِيءُ من كلّ شيء.

(٢) من الفعل أَوْغَل بمعنىٰ ذهب وبالغ وأبعد.

من التّربية الصّالحة كما في كتاب «كليلة ودِمْنة»(١)، ولكنّ العربَ كانوا يعتقدون هذا اعتقاداً، وإنْ لم يكن عامّاً فيهم، وفي شعر أُمَيَّةَ بنِ أبي الصَّلْتِ(٢) المُتَأَلِّه بيتٌ في تقرير هذا المعنى، ولم أتذكر الآن ألفاظَ هذا البيت(٣)، وقد سمعتُ من العَوامّ وشاهدتُ من يعتقدُ هذه العقيدة.

ومِن فروعِ هذا المَزْعَم عند العرب أنّهم زعموا أنّ السّمكةَ قالت للضَّبّ: «وِرْداً يا ضَبُّ»، فقال الضَّبّ:

أَصْبَحَ قَلْبِي صَرِدَا   لَا يَشْتَهِي أَنْ يَرِدَا

---

(١) كتابٌ مشهور، هنديّ الأصل، تُرجم إلى الفارسيّة ومنها إلى العربيّة ترجمه الأديب عبد الله بن المقفّع، يحوي قصصا هادفة على ألسنة الحيوانات.

(٢) هو أميّة بن أبي الصّلت بن عوف بن عقدة الثّقفي وكنيته أبو عثمان وقيل أبو الحكم، كان علّامة عصره، علما وكتابة وشعرا ورواية، كان يهوديّا وقيل كان نصرانيّا، توفّي في السّنة الثّالثة للهجرة وقيل في السّنة السّابعه على خلاف بينهم في ذلك.

(٣) هو قوله:

بِآيَةِ قَامَ يَنْطِقُ كُلُّ شَيْءٍ   وَخَانَ أَمَانَةَ الدِّيكِ الغُرَابُ

والبيتُ من قصيدة أوّلها:

جَزَى اللهُ الأَجَلُّ المَرْءَ نُوحاً   جَزَاءَ الخَيْرِ لَيْسَ لَهُ كِذَابُ

الدّيوان (ص٢٤- سجيع الجبيلي).

إِلّا عَـرَاداً عَـرِدَا وَصِلِّـيَاناً بَـرِدَا[١]

فهذا هو رَجَز الضَّبّ وهو مبنيٌّ على اعتبارٍ صحيح، وهو أنّ الضَّبَّ لا يشرب الماء، ولعلّه يكتفي عنه برطوبة الهواء الذي يستَنشِقُه والعشبِ الذي يأكلُه، كما قالوا في الظِّباءِ التي تَجْتَزِي عن الماء بما تأكله من حشيشٍ رَطْبٍ، ولذلك سَمَّى العربُ هذه الظِّباءَ جَوازِيَ واحدتُها جازِيَةٌ، ولهذه الكلمة ذِكْرٌ مُسْتَفيضٌ في كلامهم، وبها سُمِّيَت الجازِيةُ[٢] المرأةُ التي بُنِيَت عليها قصّةُ بني هِلالٍ أو بَطَلَةُ الرّواية.

---

(١) الصَّرِد: الذي يجد البردَ، العَراد والعَرادة حشيشٌ طيّب الرّيح وقيل حَمِضٌ تأكله الإبل، وعَرِدٌ أي مُلتفٌّ وزاد في اللّسان وفي إصلاح المنطِق: «وَعَنْكَثاً مُلْتَبِدَا»، والقطعةُ من مَنْهُوكِ الرَّجَز، انظر الحيوان (٦/ ١٢٥- هارون) اللّسان (٣/ ٢٨٨) وإصلاح المنطق (ص٣٩٤).

(٢) الأميرة الجازِية بنت الأمير سرحان أمير بني هلال، أو الجازية الهلاليّة كما اشتهرت، تركت زوجها صاحب مكّة مِن أجل مرافقة قبيلتها في تَغْريبتهم المشهورة مِن نَجْد إلى بلاد المغرب، عُرفت برَجاحة العقل وصواب المشورة.

فَصْلٌ

ومِن مزاعم العرب في الضَّبّ أنه أوّلُ من دَلَّ على نفسه، إذ كانت الحيوانات كلّها تتكلّم، فزعموا أنّ صائِداً مَرَّ بوادٍ فيه ضَبٌّ فلم يَتَوجَّه إلى صَيْدِه، فخاطبه الضَّبُّ بقوله:

إِنَّكَ لَوْ ذُقْتَ الكُشَى بِالأَكْبَاد   لَمَا تَرَكْتَ الضَّبَّ يَعْدُو بِالوَاد(١)

والكُشَى جمع كُشْيَةٍ وهي شَحمةٌ مستطيلةٌ في الضَّبّ يقول آكِلُه إنّه لا أَلَذَّ منها، ومعنى قوله: «لَوْ ذُقْتَ الكُشَى بِالأَكْبَاد» لو أكلتَها ملفوفةً بالأكباد أو ممزوجةً بها، فهو - زيادةً عن كونه دَلَّ على نفسه - أَرْشَدَ إلى كيفيةٍ ونوعٍ من

---

(١) أسند الجواليقيّ عن محمّد بن أبي الوزير قال: إنّ أوّل من دلّ على نفسه الضَّبُّ إذ كان كلّ شيء يتكلّم، قال فمرّ راكبٌ في بعض الأيّام فلمّا ولّى صاح به الضَّبّ:

يَا أَيُّهَا الرَّاكِبُ يَنْجُو بِالوَاد   إِنَّكَ لَوْ ذُقْتَ الكُشَى بِالأَكْبَاد

لَمَا تَرَكْتَ الضَّبَّ يَعْدُو بِالوَاد

انظر الرَّجَز في شرح أدب الكاتب للجواليقيّ (ص٢٠٢- طبعة بودي- الكويت)، الصَّاهِل والشَّاحِج للمَعَرِّيّ (ص١٥٠) عيون الأخبار (٣/ ٢١١).

أنواع الملفوف، وتُذَكِّرُنا كلمة الكُشَى بكلمةٍ للزَّمَخْشَرِيّ[١] مِن كَلِمِه النَّوابِغ وهي: «مَا الأَعْرَابُ بِالكُشَى أَوْلَعَ مِنَ القُضاةِ بالرِّشَا»[٢].

وأنا أَرى أنَّ دَعْوَى العرب لدِلالة الضَّبّ على نفسه أو تزيينِه للنّاس أَكْلَه بطِيبِ شحمِه، أَرى هذه الدَّعْوَى تَرجمةً غامضةً لحقيقةٍ كونيّةٍ تَكلّم عنها الحكماءُ الباحثون في أسرار الكون والمُسْتَشْرِفُون لحكمةِ الخالق في مخلوقاته، وهي أنّ الحكمةَ العليا في ألوان الفواكه الزّاهِية ذاتِ التّلاوِين والتّهاوِيل[٣] كالخَوْخ والإِجاص والتّفّاح وغيرها في مقاديرها وأشكالها، هي الدّعايةُ إلى أَكْلها بمُجَرَّدِ النَّظرِ إليها من الإنسان والحيوان، فإنّ الرّؤيةَ بالعين تَسْبِقُ الذَّوْقَ باللّسان وتُبَيِّنُ الطَّعْمَ واللَّذاذَة.

فتلك الألوان والأشكال هي دِعاياتٌ تَسْتَهْوِي مَنْ فيه قابِليَّةُ الأكل وتدعوه إلى التّجربة، فإذا تَمَّت التّجربةُ صارت عادةً في العقلاء وغَريزَةً في من سِواهم، ولولا هذه الدَّعاوَى المُسْتَهْوِيَةُ في الألوان والتّهاويل لما أَقْدَمَ عاقلٌ ولا غيرُه على

---

(١) هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمّد بن عمر الخَوَارِزْمِيّ، وُلد سنة ٤٦٧ وتوفّي سنة ٥٣٨، كان إماماً في الحديث والتّفسير واللّغة والنّحو والبيان، معتزليّ المذهب، ترك كثيرا من المصنّفات منها الكشّاف والمفصّل وأساس البلاغة وغيرها.

(٢) انظر أساس البلاغة مادّة (كشي).

(٣) هي الألوان المختلفة.

تجربةِ شيءٍ لم يَعرِفْه لِاحتمالِ أن يكونَ فيه داؤُه لا غِذاؤُه، والحيُّ إذا عَرَضَ له خَيالُ الموت ذابَتْ كلّ الاعْتِباراتِ في نفسه.

ويَعُدُّ هؤلاءِ العلماءُ والحكماءُ وجودَ هذا المعنى في الفواكهِ بمَثابة المحافظةِ على بقاءِ نوعها وتَسَلْسُلِ نَسْلِها، وهي السُّنَّة المعروفة في عالَم الحيوان بنظام (التّوالُد النَّوْعيّ) و(التّلاقُح الجنسيّ)، فلو فَرضنا وجودَ تِينَةٍ واحدةٍ في العالَم في بُقعةٍ لا يوجد بها آدميٌّ لكان من المُتَرَتِّب على هذا الفَرْضِ انْقِراضُ صِنْفِ التِّين بعد موت تلك الشّجرة، ولكن تلك التِّينَةُ قد أَوْدَعَتْ فيها الحكمةُ ما يَحفظُ بقاءَها النَّوعيَّ بعد فَنائِها الشَّخصيِّ، وذلك أَنَّ ألوانَ ثَمرِها تَسْتَهْوي الطّيورَ إلى أَكلها ثم تزرعُ بذورَها التي تخرج مع الفَضَلات في الصّخور أو الأودية، فتَنْبُت منها شُجَيراتٌ صغيرةٌ ثمّ تنمو وتُثمِرُ دَوالَيْكَ، وقُلْ مثلَ ذلك في النَّخلة وغيرِها.

وكم رأينا في شُقوق الصّخور الشّاهقة – حيث لا تصلُ يدُ إنسانٍ – أشجاراً من التّين عَظُمَت حتّى صارت دُوَحاً[1] ، وما نَبتت إلّا من البذور الخارجة مع رَجِيعِ الطّيور.

وعلى هذا فلا يَبْـعُدُ أن يكون قومُنا العربُ أدركوا ذَرْواً مِن هذه الحكمة – وليس ذلك بعجيبٍ منهم – فجعلوا دِلالَةَ الضَّبّ على نفسه تعبيراً بلسان

---

(١) جمع دَوْحَة وهي الشّجرة العظيمة.

الحال عن هذه الحكمة، ولا شكَّ أنّ الآكِلَ الأوّلَ للضَّبِّ ما أكله إلّا بعد أن اسْتَهْواه شيءٌ فيه من سِمَاتِه الظّاهرة كالكُشْيَة، وكم لله من سِرّ خَفِيّ!

فَصْلٌ

وكما يَسْتَطِيبُ العربُ لحمَ الضَّبّ حتّى صار لهم أَثَراً وخَبَراً، كانوا يَسْتَطِيبُون أَكْلَ بَيضه ويُسَمَّى في لغتهم «المَكْن»(١).

يقول المتنبّي في وصف قومٍ من الأعراب:

خُـرَّابُ بَادِيَـةٍ غَرْثَـى بُطُـونُهُمُ   مَكْنُ الضِّبَابِ لَهُمْ زَادٌ بِـلَا ثَمَـنِ(٢)

---

(١) المَكْن بسكون الكاف و بكسرها: هو بيض الضَّبّة والجرادة ونحوهما.

(٢) البيت من قصيدة مطلعها:

أَفَاضِلُ النَّاسِ أَغْرَاضٌ لِذَا الزَّمَنِ   يَخْلُو مِنَ الهَمِّ أَخْلَاهُمْ مِنَ الفِطَنِ

قالها في مدح أبي عُبَيد الله محمّد بن عبد الله بن محمّد الخطيب الخصيبي.

خُرَّاب: جمعُ خارِبٍ وهو الذي يسرق الإبل خاصَّةً، غَرْثى: جمعُ غَرْثان وهو الجوعان.

يقول: هم لصوصٌ سُرَّاقُ خَلَواتٍ ليس لهم زادٌ، ومِن جوعهم يأكلون بَيْضَ الضِّباب يحصلون عليه بلا ثمن. انظر شرح المرزوقي (٤/ ٣٤٣).

والمتنبّي ممّن يُحسِنُ التَّبَدِّي والتَّعارِيبَ، ويُحْسِنُ وصفَ البَدْو مدحاً أو ذمّاً، وهذا البيت من هذا الطِّراز.

وقال شاعرٌ آخرُ، وأظنُّه إسلاميٌّ يَتَعارَبُ، ولستُ أتذكّر اسمه الآن[1]:

أَكَلْتُ الضِّبَابَ فَمَا عِفْتُهَا ... وَإِنِّي لَأَهْوَىٰ لُحُومَ الغَنَم
وَرَكَّبْتُ زُبْداً عَلَىٰ تَمْرَةٍ ... فَنِعْمَ الطَّعَامُ وَنِعْمَ الأُدُم
وَقَدْ نِلْتُ ذَاكَ كَمَا نِلْتُمُ ... فَلَمْ أَرَ فِيهَا كَضَبٍّ هَرِم
وَمَا فِي البُيُوضِ كَبَيْضِ الدَّجَا ... جِ وَبَيْضُ الجَرَادِ شِفَاءُ القَرِم
وَمَكْنُ الضِّبَابِ طَعَامُ العُرَيْبِ ... وَلَا تَشْتَهِيهِ نُفُوسُ العَجَم[2]

(١) هو أبو الهنديّ غالب بن عبد القُدّوس بن شَبَث بن ربعيّ، وفي «اللّسان» عبد المؤمن بن عبد القُدّوس، وقد أدرك الدّولتَيْن وله شعر لطيف، انظر ترجمته في الأغاني (٢١/ ١٧٧ــ١٨٠).

(٢) وهي عند الجاحظ في الحيوان (٦/ ٨٨-هارون) ثمانيةُ أبيات، زاد بعد البيت الثاني ثلاثةَ أبيات وهي:

وَسَمْنَ السِّلَاءِ وَكَمْءَ القَصِيصِ ... وَزَيْنَ السَّدِيفِ كُبُودُ النَّعَم
وَلَحْمَ الخَرُوفِ حَنِيذاً وَقَدْ ... أُتِيتُ بِهِ فَائِراً فِي الشَّبَم
فَأَمَّا البَهَطُّ وَحِيتَانُكُمْ ... فَمَا زِلْتُ مِنْهَا كَثِيرَ السَّقَم

والبيت الأوّل عند الجاحظ: (وَإِنِّي لَأَهْوَىٰ قَدِيدَ الغَنَم)، والأُدُم في البيت الثاني هو الإدام، وأصله الأُدْم بالسّكون وإنّما ضمّ الدّال للشعر، والبُيوض في البيت الرابع: جمعُ بَيْض، والقَرِم: مَن به شهوةٌ إلى =

وكيف لا يَسْتَطِيبُ لحمَ الضِّباب ومَكْنَ الضِّباب مَن يقول شاعرُهم، وهو عُرْوَةُ بنُ الوَرْد:

عَشِيَّةَ رُحْنَا سَائِرِيْنِ وَزَادُنَا ... بَقِيَّةُ لَحْمٍ مِنْ جَزُورٍ مُمَلَّحِ[1]

إنّنا نعرف العربَ ونعرف أنّهم قومٌ يَزِنُون الحياةَ بغير ما تَزِنُها به أُمَّةُ البطون والفُرُوج، وموازينُهم في الحياة تدور على قُطْبٍ واحدٍ وهو المَحْمَدةُ والذِّكْرُ

اللّحم، والمَكْن في البيت الأخير جمعُ مَكْنَة ومَكِنَة: وهو بَيْض الجراد والضِّباب ونحوِهما، والعُرَيْب بالتّصغير هم العرب، قال في «اللّسان»: صَغَّرهم تعظيماً.

والبيت الأخير عند المعَرِّيّ وابن مَنْظور بإسقاط الواو مِن (وَلَا تَشْتَهِيه)، وتُقرأُ هذه الرّواية بنقل باء العُرَيب إلى أوّل عَجُز البيت. انظر الأبيات في اللّسان (مادة مكن) والفصول والغايات للمعَرِّيّ (٤٧١ - تحقيق محمود زناتي) أدب الكاتب (١٩٧) عيون الأخبار (٣/ ٢١٠).

(١) البيت من قطعة أوّلُها:

قُلْتُ لِقَوْمٍ فِي الكَنِيفِ تَرَوَّحُوا ... عَشِيَّةَ بِتْنَا عِنْدَ مَاوَانَ رُزَّحِ

وجاء في الدّيوان بلفظ:

يَنُوْءُونَ بِالأَيْدِي وَأَفْضَلُ زَادِهِم ... بَقِيَّةُ لَحْمٍ مِنْ جَزُورٍ مُمَلَّحِ

أي لحمُ بعيرٍ مُقَدَّدٌ، انظر الدّيوان (ص٥٢ - تحقيق أسماء أبو بكر محمّد).

الحسنُ، وفي ذلك يقول أوّلُهم[(١)] – وما هو بالأوّل في هذا الباب – وهو يخاطب زوجتَه:

إِذَا مَا صَنَعْتِ الزَّادَ فَالْتَمِسِي لَهُ   أَكِيلاً فَإِنِّي لَسْتُ آكِلَهُ وَحْدِي

أَخاً طَارِقاً أَوْ جَارَ بَيْتٍ فَإِنَّنِي   أَخَافُ مَذَمَّاتِ الأَحَادِيثِ مِنْ بَعْدِي[(٢)]

ويقول آخرُهم، وما هو بالآخر في هذا الباب:

وَإِنَّمَا المَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ   فَكُنْ حَدِيثاً حَسَناً لِمَنْ وَعَى[(٣)]

---

(١) هو حاتم بن عبد الله بن سعد المُكنّى بأبي سَفَّانة، والمشهور بحاتم الطّائيّ صاحب المذهب المعروف في الجود والكرم.

(٢) البيتان من قطعةٍ له يخاطب فيها امرأته ماوية بنت عبد الله، مطلعُها:

أَيَا ابْنَةَ عَبْدِ اللهِ وَابْنَةَ مَالِكٍ   وَيَا ابْنَ ذِي البُرْدَيْنِ وَالفَرَسِ الوَرْدِ

المَذَمّات: الواحدةُ مَذَمَّة، والطّارِق هو الذي يأتي باللّيل، انظر الدّيوان (٤٣ – صادر).

(٣) البيت لابن دُرَيْد في المقصورة (ص١١٠) شرح عبد الوصيف محمّد.

فَصْلٌ

وتَضْرِب العربُ المثَلَ بالضَّبّ في عدَّة غَرائِز، فيضربون به المثَلَ في الحيرة فيقولون : «أَحْيَرُ مِنْ ضَبٍّ»(١)، ويَزْعُمون – وهم أَعْرَفُ النّاس به – أنّه إذا بَعُدَ عن جُحْرِه خَبُلَ ولم يَهْتَدِ إليه على خِلافِ المعهود في أمثاله من سُكّان الأَجْحَارِ، وهو على خلاف المعهود في الطّيور ذوات الأَوْكار، ويضربون به المثَلَ في العُقُوق فيُقال: «أَعَقُّ مِنْ ضَبٍّ»(٢) ويُفَسِّرون عُقوقَه بأنه يَأكل حُسُولَه(٣)، جمع حِسْلٍ وهي جِراؤُه الصّغار، وهو لَحِمٌ ونباتِيٌّ معاً، واللَّحِمُ هو الذي يأكل اللّحمَ ويُجْمَعُ على لَوَاحِمَ. يقولون: «لَا آتِيكَ سِنَّ الحِسْلِ»(٤) يَعْنُونَ التَّأبِيدَ إذ يَزْعُمُون أَنّ

---

(١) انظر المثل في المستقصى (١/ ٩٠) جمهرة الأمثال (١/ ٣٢٢).

(٢) يُريدون الضَّبَّـةَ، فأسقطوا الهاء لكثرة الاستعمال، انظر المثل في المستقصى (١/ ٢٥٠) أدب الكاتب (١٩٧) الحيوان (٦/ ٥٨- هارون).

(٣) قال العَمَلَّس بن عُقَيل بن عُلَّفَة يخاطب أباه:

أَكَلْتَ بَنِيكَ أَكْلَ الضَّبِّ حَتَّى وَجَدْتَ مَرَارَةَ الكَلَإِ الوَبِيلِ

انظر المستقصى (١/ ٢٥٠).

(٤) انظر المستقصى (٢/ ٢٤٤)، وهو فيه بلفظ: لا أفعل ذلك سِنَّ الحِسْل، جمهرة الأمثال (١/ ٣٣٦) الحيوان (٦/ ١١٦- هارون).

الحِسْلَ لا تسقطُ له سِنٌّ.

فَصْلٌ

ويَزعُمون أنّ الضَّبّ له نِزْكَان، أي ذَكَران واحدُهما نِزْكٌ، ويَعُدُّون هذا من فضائله وخصائصه، وكثيراً ما فكّرتُ في هذا الزَّعْم، ما يصنع بالنِّزْكَيْن؟ أَيَكُومُ بهما معاً في آنٍ واحدٍ؟ ويَلْزَمُ مِن هذا أن يكون لِأنثاه فَرْجان، أم يستعمل أحدَهما حتّى إذا كَلَّ وفَتَرَ استعملَ الآخرَ؟ كما يستعملُ البطَلُ سَيْفَيْن على التَّعاقُب احتياطاً لِكَلَالِ أحدِهما أو انْثِلامِه[1]، وإذا كان حقّاً ما يقولون فلا نَشُكُّ أنّ الخالق لم يخلقْهُما عبثاً.

ولم أَزَلْ في رَيْبٍ حتّى قرأتُ حكايةَ عاملٍ لخالدٍ القَسْريّ[2]، أَهْدى إليه في يوم نَيْرُوزٍ[3] سَلَّةً مملوءةً ضِباباً وكَتب معها أبياتاً في وَصْفِها منها قولُه:

تَرَىٰ كُلَّ ذَيَّالٍ إِذا الشَّمْسُ عَارَضَتْ ... سَمَا بَيْنَ عِرْسَيْهِ سُمُوَّ المُخَايِلِ

---

(١) أي انكساره.

(٢) هو أبو الهيثم خالد بن عبد الله بن يزيد القَسْريّ، أمير العِراقَين وأحد خطباء العرب وأجْوادهم، توفي مقتولا سنة ١٢٦.

(٣) النَّيروز هو أوّل يوم من السّنة، مُعَرَّبُ نَوْرُوز.

حِسْلٌ لَهُ نِزْكَانِ كَانَا فَضِيلَةً عَلَى كُلِّ حَافٍ فِي البِلَادِ وَنَاعِلِ[1]

فوقعتُ في حَيْرةٍ أخرى مِن قوله: (سَمَا بَيْنَ عِرْسَيْه) لِمَا يُفهَمُ منه أنّ له زوجتَيْن، ولعلّ من خصائصه - ما دام مَحلّاً للخصائص - أنّه خُلِق بنِزْكَيْن ليَكُومَ كلَّ عِرْسٍ بنِزْكٍ، ويكونَ اختصاصُه بالنِّزْكَيْن مُرتبِطا باختصاصه بالعِرْسَيْن، وزاد في الحَيْرة أنّ في غيره من الحيوان بما فيه الإنسان مَن له أكثرُ مِن عِرْسٍ، وذَكَرُ الحمام والدّجاج يُسافِدُ العشراتِ مِن إناثها، وليس لِجميعها إلّا نِزْكٌ أو ذكرٌ واحدٌ، وما دُمنا لم نُجرِّب ولم نَدرُس دراسةَ اسْتِقْراء، فلْنَقُلْ ما قالته العربُ إنّها خصوصيّةٌ أو فضيلةٌ، ومَن أحبَّ شيئاً نَحَلَه ما شاء مِن الكمالات.

ثمّ قرأتُ في بعض كتب اللّغة: أنّ ذَكَر الضَّبّ يُسَمَّى نِزْكاً، وأنّ لكلّ ضَبٍّ نِزْكَيْن وأنّ فَرْجَ أنثاه يُسمّى قُرْنَة، ولِأنثى الضَّبّ قُرْنَتان، فإن صحَّ هذا ظهرت الحكمة في النِّزْكَيْن.

---

(١) البيتان في الحيوان (٦/ ٧٣- هارون) بتقديم البيت الأخير، وهو عنده بلفظ سِبَحْل، والسِّبَحْل هو العظيم المسنّ مِن الضِّباب، أمّا الرّواية التي ذكرها الشّيخ فهي تحريف أو خطأ مِن النّاسخ.

فَصْلٌ

ولِمَا ذكرناه مِن علاقةِ العرب بالضَّبّ سَمَّوْا به على عاداتِهِم في التّسمية بالأشجار والنّبات والأحجار والحيوان، ولهذه الأسماء العربية المنقولة من أسماء الجماد والنّبات والحيوان فلسفةٌ خاصّةٌ كنتُ أَمْلَيتُ فيها دروساً عديدةً على تلامذة دار الحديث بتِلِمْسانَ[1] في ١٣٥٧هـ، وكتبَها عنّي التّلاميذُ، وجعلتُها

---

(١) أُنشئت (دار الحديث) بجهد الشّيخ البشير الإبراهيميّ -رحمه الله- وبمعاونة الجمعيّة الدّينيّة الإسلاميّة بتلمسانَ التي كان يَرأسها المحامي عبد السّلام طالب، واتُّخِذ قرار بناء الدّار في شهر ديسمبر من سنة ١٩٣٤ وتمّ شراء قطعة الأرض التي شُيِّدت عليها سنة ١٩٣٥، وكانت عبارةً عن دكّان ليهوديّ، وفي ١٧ فبراير سنة ١٩٣٦ انطلقت لجنة تشييد وبناء المدرسة في العمل، واختير لها طابعٌ معماريٌّ إسلاميٌّ أندلسيٌّ من طرف المهندس الفذّ: عبد الرّحمن بوشامة رحمه الله.

وافتُتِحت الدّارُ للتّدريس يوم: ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٧ بحضور أكثر من ثلاثة آلاف مدعوٍّ، يَتقدّمُهم رئيسُ جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين الشيخُ عبد الحميد بن باديس -رحمه الله-، ولا تزال الدّارُ إلى اليوم تفتح أبوابَها بعدَما أُجريَ عليها بعضُ التّرميم والإصلاح بمناسبة اختيار تلمسان عاصمةً للثّقافة الإسلاميّة. انظر الحركة الإصلاحيّة بتلمسان: خالد مرزوق والمختار بن عامر، مجلّة الجوهرة التي تُصدرها وزارة الثقافة العدد(٣)، مجلّة الإصلاح العدد (٢٠)، العدد المزدوج الثّالث والرّابع من مجلّة الوعي (ص١٨).

مقدّمة لِدرسٍ أنساب العرب.

وقد سُئِل بعضُ العرب: مالكم تُسَمُّون أبناءَكم بأسماءٍ قبيحةٍ جافِيةٍ، وتُسَمُّون عبيدَكم بأسماءٍ حسنةٍ كسُرورٍ ورَباحٍ؟ فأجاب العربيُّ: إنّنا نُسمّي عبيدَنا لأنفسنا، أمّا أبناؤُنا فهُم لعدوِّنا، يعني أنّ العبيدَ للخدمة والمهن المنزليّة أو للقيام على الماشية، وكلُّها سِلْمٌ واطمئنانٌ، فكان المناسبُ هذه الأسماءَ المُفرِحةَ التي تجري مَجرَى الفَأْل.

وأمّا الأبناء فمَرْمَى العرب مِن كثرة النَّسل الاعتزازُ بهم والاعتمادُ عليهم في الغارات والانتصافُ من الأعداء، وألْيَقُ الأسماء بهذه المواقف: جَنْدَل ونَهْشَل وصَخْر ولَيْث وفَهْد وعَوْسَجَة وحَرْب، لأنّها تُثيرُ في نفوس الأعداء خَيالاتٍ مِن معانيها[١].

ومِن الغريب أنّ العربَ لم تُسَمِّ ضَبًّا بلفظ المذكّر إلّا قليلاً، وأغلب ما سَمَّت به ضَبَّة بلفظ المؤنَّث وهو عَلَمٌ على عِدَّة قبائلَ يُطْلِقون عليها الضِّباب.

ومِن أَشْهر مَن تَسَمَّى بهذا الاسم ضَبَّةُ بن أُدٍّ بن طابخة وهي قبيلةٌ مشهورةٌ

---

(١) قال ابنُ دُرَيْدٍ – رحمه الله تعالى –: «أخبرنا أبو حاتم سَهْل بن محمّد السِّجِسْتانيّ قال: قيل للعُتْبيّ: ما بالُ العرب سَمَّت أبناءَها بالأسماء المُسْتَشْنَعة وسَمَّت عبيدَها بالأسماء المُسْتَحْسَنة؟، فقال: لأنّها سَمَّت أبناءَها لأعدائها وسَمَّت عبيدَها لأنفسها، وقد أجاب العُتْبيّ بجملةٍ كافيةٍ». انظر الاشتقاق (ص٤).

يَعُدُّها النَّسَّابون الجمْرةَ الثّالثة مِن جَمَراتِ العرب[١]، وجَمَراتُ العرب هي قبائل استقلّت ولم تُحالف غيرَها لعِزِّها ومَنَعَتِها، ولفظُها مأخوذٌ من التَّجَمُّر، وهو التّجمُّع، وهذه الجَمَراتُ هي نُمَيْرُ بنُ عامر وضَبَّةُ بن أُدٍّ والحارث بن كَعْب[٢]، ويقول علماء النّسب إنّ الجمْرتَين الأخيرتَين انطفأتا بالمحالفة لأنّ ضَبَّةَ بنَ أُدٍّ

---

(١) وضَبَّة بن أُدّ هو عمّ تميم بن مُرِّ بن أُدِّ بن طابخة بن إلياس بن مُضَر، وأبناء ضَبَّةَ ثلاثةٌ: سعد وسُعَيْد – بالتّصغير – وباسِل، الأخير أبو الدَّيْلَم، وسُعَيْد لا عَقِبَ له، فانحصر نسبُ ضَبَّةَ في سعد بنِ ضَبَّةَ. انظر تاج العروس (٣/ ٣٣٣).

(٢) اختلف العلماء – رحمهم الله تعالى – في هذه الجمَرات على أقوال كثيرة، وما ذكره الشّيخُ هنا منقولٌ عن أبي عُبيدةَ نقله عنه صاحبا الصِّحاح واللّسان وهو ما ذهب إليه صاحب القاموس، وزاد بعضُهُم بني عَبْس بن ذُبْيَان فصاروا أربعةً، ذكر هذا القولَ صاحبُ العِقد الفَريد كما نُقل عن أبي عُبَيدةَ، وذكر بعضُهُم عَبْسَ بنَ ذُبيان بَدَلَ الحارثِ بنِ كعب، رُوي هذا القولُ عن الجاحظ، وذهب ابنُ رَشيقٍ المَسِيلِيُّ القيروانيُّ صاحبُ العُمْدة إلى أنّهم ضَبَّة والحارث وعَبْس.

وهذا الخلاف لا يمكن معه الجمعُ بين الأقوال – كما ترى – لِتعارضها وتخالفها، قال العلّامة مُرْتَضى الزَّبيديُّ: «فإذا تأمّلتَ كلامَهُم تجده مُصادِماً بعضُه مع بعضٍ – وذَكَر الخلافَ في ذلك ثمّ قال – فإذا عرفتَ ذلك فقولُ شيخنا: (وإذا تأمّلتَ كلامَهم علِمتَ أنّه لا مخالفةَ ولا منافاةَ، إلا أنّ البعضَ فَصَّلَ والبعضَ أَجْمَلَ) – مَحَلُّ تأمُّل». تاج العروس (١٠/ ٤٥٩ فما بعدها) وانظر للمسألة العُمدة (٢/ ١٩٧ وما بعدها – محيي الدين) اللّسان (٧/ ٦٧٥) العِقد الفريد (٣/ ٣١٨) القاموس (مادة جَمَر).

حالَفتِ الرِّبابَ[1]، والحارثَ بنَ كعبٍ حالَفت مَذْحِج[2]، وبقيت نُمَيْرُ بنُ عامر جمرةً مُتَّقِدةً لم تحالف أحداً إلى أن جاء الإسلام، وكما تُسَمَّى هذه القبائلُ جَمَراتٍ تُسَمَّى جِماراً، يقول الفَرَزْدَق[3]:

خَطَرَتْ وَرَائِي دَارِمي وَجِمَارِي

ونسِيتُ الشّطرَ الأوّل[4]. وممّا يُطْرِبُني من كلام الشّعراء في ذِكْر الجَمْرة

---

(١) بكسر الرّاء، هم خمسُ قبائل تجمّعوا فصاروا يداً واحدةً وهم: ضَبَّة وثَوْر وعُكْل وتَيْم وعَدِيّ، وإليهم أشارَ العلّامةُ أحمد البدويُّ المَجْلِسِيُّ في أَلْفيَّته في النّسب المُسمّاة «عمود النّسب» بقوله:

عَبْدُ مَنَاةِ بْنُ أُدٍّ تُنْسَبُ لَهُ الرِّبَابُ زُمَرٌ تَرَبَّبُوا

مَعَ تَمِيمٍ وَهْيَ ثَوْرٌ عِجْلُ تَيْمٌ عَدِيٌّ ضَبَّةٌ وَعُكْلُ

انظر عمود النّسب (ص٤٦).

(٢) مَذْحِج كمَجْلِس شعبٌ عظيمٌ فيه قبائلُ وأفخاذٌ وبُطونٌ، ومَذْحِج اسمُه مالكُ بنُ أُدَدٍ، وقيل مالكُ بنُ زيد، وموطنُهم بأرض اليمن.

(٣) هو هشام بن غالب بن صَعْصَعَة، لُقِّب بالفَرَزْدَق، كُنيته أبو فِراس، الشّاعر المعروف، توفيّ سنة ١١٤.

(٤) وهو:

وَإِذَا كِلَابُ بَنِي المَرَاغَةِ رَبَّضَتْ خَطَرَتْ وَرَائِي دَارِمِي وَجِمَارِي

والبيتُ مِن قصيدةٍ مِن أربعينَ بيتاً يهجو بها جريراً أوّلُها:

يَا ابْنَ المَرَاغَةِ إِنَّمَا جَارَيْتَنِي بِمُسَبَّقِينَ لَدَى الفِعَالِ قِصَارِ

=

والجِمار قولُ مِهْيَارَ الدَّيْلَميّ[(١)] تلميذِ الشّريف الرَّضِيّ في إحدى قصائده :

يَـا ابْنَـةَ الجَمْـرَةِ مِـنْ ذِي يَـزَنٍ فِي الصَّمِيمِ العِدِّ وَالبَيْتِ الرَّحِيـبِ[(٢)]

ويا بُنيَّ إنّ ممّا آسَفُ عليه أسفاً لا يَنقضي، ضَياعُ هذا العلم مِن بيننا، علمِ أنساب العرب وأيّام العرب وأمثال العرب، وإنّها لَكنوزٌ مِن المعارف وأجزاءٌ كاملةٌ مِن التّاريخ والأدب، ومُحالٌ أن يزدهرَ الأدبُ العربيُّ ويُؤثّرَ آثارَه المرغوبةَ في ناشِئَتِنا إلّا إذا استكملَ الأدباءُ هذه الأجزاءَ المفقودة.

وعلى ذِكْرِ اختيار العرب في التّسمية ضَبَّةَ دون ضَبٍّ، أُذكِّركم بكلام كنتُ قرأتُه لبعض علماء اللّغة المُتبحِّرين في فهم أسرارها، وهو أنّ العربَ يُلحِقون

خَطَرَ عليه الشّيءُ: ذَكَره بعد نِسيانٍ، ودارِم وجِمار قبيلتان من قوم الفَرَزْدَق، ورَنَّضت أي أقعَت واسْتكانَت، والمَراغَة لقبٌ لأمّ جَرير. انظر ديوان الفَرَزْدَق شرح إيليا الحاوي (١/ ٢٨٩).

(١) هو أبو الحسن مِهْيَار بن مَرْزَوَيْه الكاتب الفارسيّ الدَّيْلَميّ الشّاعر المشهور، كان مَجوسيّاً فأسْلَم، تلميذُ الشّريف الرَّضِيّ ويُقال أنّه أسْلَم على يده، تُوفّيَ سنة ٤٢٨، انظر ترجمته في وَفَيَات الأعْيان (٥/ ٣٥٩ وما بعدها).

(٢) البيت مِن قصيدة طويلة مِن سبعة وثمانين بيتاً، كَتَب بها إلى الصّاحب عَميدِ الحَضْرة ذي الرُّتبَتَيْن أبي طاهر بنِ حمّاد أوّلها:

نَظْـرَةٌ مِنْـكِ وَيَوْمٌ بِالجَـرِيبِ حَسْـبَ نَفْسِي مِنْ زَمَانٍ وَحَبِيبِ

انظر الدّيوان (١/ ١٠٢).

تاءَ التّأنيث بصفات المذكّر كثيراً كعلّامة وفهّامة وتِكْلامَة وتِلْقامة ورُحْلَة وهُزْأَة، وهي كثيرةٌ في كلامهم، قال: «وهم يَرَوْن فيما هو منها مدحٌ إلى معنى الدّاهية، وفيما هو منها ذمٌّ إلى معنى البهيمة العَجْماء»، وهو كلام فقيهٍ في العربيّة محيطٍ بأسرارها ومقاصدِ واضِعِيها وخَلَجَاتِ نفوسهم، وأظنُّ أنّ صاحبَ هذه النّظريّة هو ابنُ الأَعْرابيِّ أحدُ فقهاء اللّغة المُبَرِّزين ولا أَقْطَعُ بذلك.

فَصْلٌ

وقد جَرَى في هذه الرّسالة ذِكْرُ الوزير المغربيّ[١]، وهو رجلٌ يَقْبُحُ بمُتأدِّبٍ أن يجهلَه، وهو رجلٌ غريبُ الأطوار بعيدُ الهِمّة، عجز المُؤرّخون أن يُحلّلوا سيرتَه تحليلاً صحيحاً، ولم يَقُل لنا التّاريخ إلا أنّه مغربيٌّ[٢]، كان أبوه من رجال الدّولة

(١) هو الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن محمّد المغربيّ.

(٢) بل هو مشرقيّ، يَنسِب نفسه إلى الملك الفارسيّ (بهرام جور) ونُسب إلى (المغربيّ) لأنّ جدّه عليّ بن محمّد كان مسؤولا في بغداد عن (ديوان المغرب) يقول في إحدى رسائله: «وكان جدّ أبي هو أبو الحسن عليّ بن محمّد يَخْلُفُ على ديوان المغرب فنُسب به إلى المغرب» انظر الوزير المغربي لإحسان عباس (ص٧-٨).

الفاطميّة بمِصرَ ومِن دعائمها وخَواصِّها[١]، ثمّ قتله الخليفةُ الحاكم بأمر الله[٢] وهرب ولدُه هذا إلى القدس وأثارها شَغْواءَ على الحاكم بدَهائه وكَيْده[٣]، ثمّ تقلّبت به الأحوالُ ودخل بغدادَ فأقامَ الخلافة العبّاسيّة وأقعدَها خوفاً منه، وتَقَلَّب فيها في عدّة وِلاياتٍ مِن كتابةٍ ووِزارةٍ لبعض ملوك الطّوائف فيها[٤]، ولا نَشُكُّ في أنّ أصلَه مِن القَيْرَوان أو من هذه النّواحي، ودخل أسلافُه في رِكابِ الخلفاء الفاطميّين إلى مِصر حين فتحوها.

وكان شُعْلةَ ذكاءٍ وحِفْظٍ للآداب وأصنافِ المعارف[٥] واجتمع بالمَعَرِّيّ وهو صغيرٌ بحَلَب، فانعقدت بينهما أُلْفَةٌ متينةٌ تُسْتَشَفُّ ممّا تَراسَلا به بعدَ الفراق، وحسبُك شهادةُ المعَرِّيّ دليلاً على مكانته في العلم والأدب، وقد غَمُضَ الكثيرُ

(١) خدم أبوه سيف الدولة بحلب ثم الدولة الفاطميّة بمصر. الوزير المغربي (ص٨-١٣).

(٢) قتله مع أخيه وابنيه.

(٣) ذهب إلى الرَّمْلَة وحاول إثارتها على الحاكم ولكنّه فشل في ذلك.

(٤) توفّي رحمه الله في (ميافارقين) في رمضان سنة ٤١٨ بعد مرض ألمّ به، ووُلد بحلب سنة ٣٧٠، وترك العديد من الكتب منها: أدب الخواصّ، الإيناس، رسالة في السّياسة، المأثور في مُلَح الحُدور، وغيرها.

(٥) وكان رحمه الله أديبا شاعرا وناثرا وناقدا، وله اهتمام بإعجاز القرآن وتفسيره.

من تاريخه وتاريخ أوّليّته بغموض تاريخ الفاطميّين[١].

وكثيراً ما أذكرُ هذا الرّجل فأذكرُ بذِكْره أبا عليٍّ المَلْيَانيَّ أحدَ كُتَّاب الدّولة المَرِينِيَّةِ[٢]، وأصلُه مِن مَلْيَانة[٣]، فقد كان يُشبِه الوزيرَ المغربيَّ في الطُّموح إلى

---

(١) انظر ترجمته في «الوزير المغربي» للدّكتور إحسان عبّاس، وما كتبه الشّيخ حمد الجاسر في مقدّمة تحقيقه لكتاب «الخواصّ» له، وما كتبه سامي الدّهان في مقدّمة تحقيقه لرسالة الوزير في السّياسة، وكتاب د.إحسان عبّاس هو أجمع ما كُتب عنه.

(٢) إنّما هو أبو العبّاس وأبو عبد الله أحمد بن عليّ الملياني، تولّى خُطّة الكتابة في الدّولة المَرينيّة بعد مقتل عمّه أبي عليّ الذي قتله السّلطان يوسف بن يعقوب بِوِشاية من شيوخ المَصَامِدَة، في قصّة مذكورة في كتب التّاريخ، ووَهِم الشّيخ - رحمه الله تعالى - فخلط بينهما، وإنّما الذي ذكره ابن الخطيب بذلك الوصف هو أحمد بن عليّ، كما في الإحاطة (١/ ٢٨٥)، وكان يُضرب به المثل في العفّة وقوّة الصّريمة، ونفاذ العزيمة، توفّي رحمه الله يوم السّبت التّاسع من ربيع الآخر عام ٧١٥ ، ومِن شعره الجيّد الذي يدلّ على مكانته وعلوّ همّته قولُه:

العِــزُّ مَــا ضَرَبَــتْ عَلَيْــهِ قِبَــابِي ... وَالفَضْــلُ مَــا اشْــتَمَلَتْ عَلَيْــهِ ثِيَــابِي
وَالزَّهْرُ مَا أَهْـدَاهُ غُصْـنُ يَرَاعَتِـي ... وَالمِسْــكُ مَــا أَبْــدَاهُ نَقْــشُ كِتَــابِي
وَالمَجْـدُ يمْنَـعُ أَنْ يُـزَاحِمَ مَـوْرِدِي ... وَالعَــزْمُ يَــأْبَى أَنْ يُسَــامَ جَنَــابِي
فَــإِذَا بَلَــوْتُ صَــنِيعَةً جَازَيْتُهَــا ... بِجَمِيـلِ شُـكْرِي أَوْ جَزِيـلِ ثَـوَابِي

انظر ترجمته في الإحاطة (١/ ٢٨٤)، درّة الحجال (١/ ١٤)، الاستقصا (١/ ٧٧).

(٣) مدينةٌ تقع غرب الجزائر العاصمة، تنتمي إلى ولاية عين الدّفلى، تأسّست خلال العهد الرّوماني، =

العُلا وفي الاستبداد وركوب العظائم، نَوَّه به ابنُ الخَطِيب في كثيرٍ مِن كُتُبه ووَصَفَه في كتابه «التّاج المُحَلَّى» بقوله: «الكاتب البَاتِك والصّارِم الفاتِك»، ثمّ ذَكَر مِن أفعاله الدّالة على بُعْد هِمّتِه مكيدةً كادَها لبعض أعدائه، وفَتْكةً فَتَكها بهم ظهرَ فيها دهاؤُه وإقدامُه واشتهر بها تاريخُ حياتِه وقال في آخر التّرجمة: «وتركها شنعاءَ على الأيّام، وعاراً في الأقاليم على حَمَلَة الأقلام»[1].

هذا ما جرى به القلمُ ممّا جَرَّ إليه ذِكْرُ الضَّبّ الذي أهديتُموه لِولدي الصّغير، فأحسنتم بذلك إلى شيخٍ كبيرٍ، فقد تَذكَّر بسببكم بعضَ ما كان ناسياً وأَبَى إلّا أن يَشكُرَ إحسانَكم بكتابة هذا القَدْر إليكم عسى أن تستفيدوا منه فائدةً، فيكونَ جزاءً على تَسَبُّبِكم في الخير.

ولو كان هذا لِحَدَثَانٍ في المطالعات الواسعة أو في وقت الحَدَاثَة وامتلاء الحافِظة، لَكانت هذه الرّسالة مُزاحِمةً لرسائل القدماء في الإحاطة وجمع الأطراف، ولكن عُذْري عندكم وعند مَن يطّلع على هذه الرّسالة فيجدُ فيها قُصُوراً أو وَضْعاً لبعض الأسماء في غير موضعها أنّني أَمْليتُها في ليلةٍ، وما أملاها إلا فِكْرٌ كليلٌ عن حافِظةٍ مُخْتَلَّةٍ نَسِيَتْ أكثرَ ما وَعَتْ وضَيَّعَتْ كثيراً ممّا اسْتُودِعَت، مع اضطراب الحال واشتغال البال، وعسى أن تكونَ هذه

بها آثارٌ للأمير عبد القادر الجزائريّ، يُنسب إليها كثيرٌ من العلماء.

(١) انظر تفصيل ذلك في الإحاطة (١/ ٢٨٤) والاستقصا (١/ ٧٧).

الرّسالةُ تَذْكِرةً بالحال الذي كُتِبت فيه والبلدة التي صدرت عنها والزّمان الذي أُنْشِئَت فيه.

❁ ❁ ❁

تم بحمد الله

فِهرِسُ الأَشعَار

فهرس الأمثال

فهرس المراجع

- آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيميّ/ جمع وتقديم نجله: د.أحمد طالب الإبراهيميّ- دار الغرب الإسلاميّ- ١٩٩٧.
- الإحاطة في أخبار غرناطة/ لسان الدين بن الخطيب- تحقيق محمد عبد الله عنان- مكتبة الخانجي- ١٩٧٣.
- أدب الكاتب/عبد الله بن قتيبة ت ٢٧٦.
- الأزمنة والأمكنة/ المرزوقيّ.
- الإشتقاق/ أبو بكر بن دُريد ت٣٢١- تحقيق وشرح: عبد السلام هارون- دار الجيل- بيروت ١٩٩١.
- إصلاح المنطق/ ابن السّكّيت ت ٢٤٤- شرح وتحقيق: أحمد محمّد شاكر، عبد السّلام هارون- دار المعارف- مصر.
- الأغاني/ أبو الفرج الاصبهاني.
- الإنصاف في مسائل الخلاف/ أبو البركات ابن الأنباريّ ت٥٧٧- ومعه كتاب الانتصاف من الإنصاف لمحيي الدين عبد الحميد- المكتبة العصرية- ١٩٩٧.
- الأنواء في مواسم العرب/ عبد الله بن قتيبة ت ٢٧٦- طبعة مصحّحة.

- تاج العروس من جواهر القاموس/ محمّد مرتضى الزَّبيديّ- تحقيق: د.عبد الفتّاح الحلو- مطبعة حكومة الكويت- ١٩٨٦.
- التّعليق الممجّد على موطّأ الإمام محمّد/ أبو الحسنات اللّكنوي- ٢٠٠٣.
- الجراثيم/عبد الله بن قتيبة ت ٢٧٦- تحقيق: محمد جاسم الحميدي- منشورات وزارة الثقافة- سوريا ١٩٩٧.
- جمهرة اللّغة/ أبو بكر بن دُريد ت ٣٢١- مطبعة دائرة المعارف- حيدر آباد- ١٣٥٤هـ
- جمهرة الأمثال/ أبو هلال العسكريّ- تحقيق: د.أحمد عبد السّلام- دار الكتب العلميّة- ١٩٨٨.
- الحركة الإصلاحيّة بتلمسان/ خالد مرزوق والمختار بن عامر.
- الحيوان/ أبو عثمان الجاحظ- تحقيق وشرح: عبد السلام هارون- مطبعة مصطفى البابي الحلبي- القاهرة ط٢/١٩٦٥.
- الخصائص/ أبو الفتح عثمان بن جنّي- تحقيق: محمد علي النّجار- المكتبة العلمية- مصر.
- درّة الحِجال في أسماء الرّجال/ أبو العبّاس أحمد بن محمّد المكناسيّ ت ١٠٢٥- تحقيق: محمّد الأحمدي أبو النّور- مكتبة التّراث- القاهرة.
- ديوان الخنساء/ اعتنى به وشرحه: حمد وطمّاس- دار المعرفة- لبنان ط٢/٢٠٠٣.
- ديوان الفَرَزْدَق/ شرح إيليا الحاوي.

▪ ديوان النّابغة/شرح عباس عبد السّاتر- دار الكتب العلمية ط٣/١٩٩٦.
▪ ديوان أميّة بن أبي الصّلت/ جمع وتحقيق وشرح: سجيع الجبيلي- دار صادر- بيروت ١٩٩٨.
▪ ديوان حاتم الطّائي/ دار صادر- بيروت ١٩٨١.
▪ ديوان عُرْوة بن الوَرْد/ دراسة وشرح وتحقيق: أسماء أبو بكر محمّد- دار الكتب العلمية- ١٩٩٨.
▪ ديوان مهيار الديلمي/ مطبعة دار الكتب المصرية- ١٩٢٥.
▪ شرح أدب الكاتب/ موهوب الجواليقيّ- تحقيق: طيبة حمد بودي- مطبوعات جامعة الكويت- ١٩٩٥.
▪ شرح ديوان المتنبي/ عبد الرّحمن البرقوقي- دار الكتاب العربي- لبنان ١٩٨٦.
▪ شرح مقصورة ابن دُرَيد/ عبد الوصيف محمّد.
▪ الصَّاهِل والشَّاحِج/ أبو العلاء المعريّ ت٤٤٩ – تحقيق د.عائشة بنت الشّاطئ- دار المعارف ط٢/١٩٨٤.
▪ صحيح مسلم بشرح النّوويّ/ محيي الدّين يحيى بن شرف النّوويّ ت ٦٧٦- تخريج: محمّد عبد العظيم- دار التّقوى- مصر.
▪ ظاهرة المجاورة في الدّراسات النّحوية ومواقعها في القرآن الكريم/ د.فهمي حسن النّمر- دار الثقافة- القاهرة ١٩٨٥.

- **العِقد الفريد/** أحمد بن عبد ربّه الأندلسيّ ت ٣٢٨- تحقيق: د.مفيد محمّد قميحة- دار الكتب العلميّة ١٩٨٣.
- **العُمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده/** أبو عليّ بن رشيق ت ٤٥٦- تحقيق محيي الدين عبد الحميد- دار الجيل- سوريا ١٩٨١.
- **عمود النّسب/** أحمد البدويُّ المَجْلِسِيُّ.
- **العين (مرتّبا على حروف المعجم)/** الخليل بن أحمد الفراهيديّ ت ١٧٥- ترتيب وتحقيق: عبد الحميد هنداوي- دار الكتب العلميّة- ٢٠٠٣.
- **فتح الباري شرح صحيح البخاريّ/** أحمد بن حجر العسقلانيّ ت ٨٥٢ (مع تعليقات عبد العزيز بن باز)- مكتبة الصّفا- ٢٠٠٣.
- **فرائد الخرائد في الأمثال/** أبو يعقوب يوسف الخويّي ت٥٤٩- تحقيق: د.عبد الرزاق حسين- دار النفائس- الأردن.
- **الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ/** أبو العلاء المعرّيّ- ضبطه وفسّر غريبه: محمود حسن زناتي- دار الآفاق الجديدة- بيروت.
- **القاموس المحيط/** مجد الدّين الفيروزآبادي ت ٨١٧- مؤسسة الرّسالة- ٢٠٠٥.
- **الكتاب/** أبو بِشْر عمرو بن عثمان سيبويه- تحقيق وشرح: عبد السّلام هارون- مكتبة الخانجي- القاهرة ط٤/٢٠٠٤.
- **كتاب الأمثال/** أبو فَيد مُؤرِّج السَّدوسيّ ت ١٩٥- تحقيق: رمضان عبد التّواب- دار النّهضة العربيّة- بيروت ١٩٨٣.

- **لسان العرب**/ أبو الفضل بن منظور- دار صادر- بيروت.
- **مجلّة الجوهرة**/ تصدر عن وزارة الثقافة.
- **مجلّة حوليّات الآداب والعلوم الاجتماعيّة**/ تصدر عن مجلس النّشر العلمي- جامعة الكويت.
- **مجلّة معهد المخطوطات العربيّة**/ تصدر عن معهد المخطوطات التّابع لجامعة الدّول العربيّة.
- **المخصّص**/ أبو الحسن بن سيدة ت ٤٥٨- دار الكتب العلمية.
- **المستقصى في أمثال العرب**/ أبو القاسم الزّمخشريّ ت ٥٣٨- دار الكتب العلمية- ط٣/١٩٨٧.
- **المعاني الكبير**/ عبد الله بن قتيبة ت ٢٧٦- دار الكتب العلميّة- ١٩٨٤.
- **معجم المعاجم**/ أحمد الشّرقاويّ إقبال- دار الغرب الإسلاميّ- ط٢/١٩٩٣.
- **مقدّمة ابن خلدون**/ عبد الرحمن بن خلدون دار الكتب العلميّة.
- **الوزير المغربي**/ إحسان عباس- دار الشروق- الأردن ١٩٨٨.
- **وَفَيَات الأعْيان وأنباء أبناء الزّمان**/ أبو العبّاس بن خلّكان ت ٦٨١- تحقيق: د.إحسان عبّاس- دار صادر.

فهرس الموضوعات

تُعَدّ رسالة الضّبّ للإمام الإبراهيمي أثراً ذا قيمة علمية كبيرة، كيف لا وقد أملاها الشيخ من حفظه يوم كان مسجوناً بمدينة آفلو من الصحراء الوهرانية وضمّنها من الفوائد والأشعار والمسائل اللغوية واللطائف قدراً لا يُستهان به، فهي تعد من كتب الأمالي، وكتب الأمالي واللغوية منها خاصة انقطع التصنيف فيها منذ أمد بعيد كما ذكر السيوطي وغيره...

دار المعارف الجزائرية
للنشر والتوزيع

264 شارع أول نوفمبر
العلمة سطيف

هاتف و فاكس
036 65 62 37

9 789931 906704

رقم الإيداع: 2012-82
ردمك: 978-9931-9067-0-4